مقدمة الطبعة الثانية

عِنْدَ نَفَادِ الطَّبْعَةِ الأُولَى رَأَيْتُ أَنْ أُعِيدَ النَّظَرَ، وَأَنْ أَبْذُلَ الْمَزِيدَ مِنَ العِنَايَةِ بِالْقِصَّةِ، وَلَمْ تَقْتَصِرْ هَذِهِ العِنَايَةُ عَلَى التَّشْكِيلِ، وَانْتِقَاءِ العِبَارَةِ؛ وَإِنَّمَا تَمَّ فَحْصُ القِصَّةِ إِجْمَالاً؛ لِكَي تَخْرُجَ جَمِيلَةً مُفِيدَةً، إِنْ شَاءَ اللهُ.

د. المرتضى بن زيد بن زيد بن علي المحطوري الحسني

٢٠شعبان ١٤٣٠هـ - الموافق ١٠ /٨/ ٢٠٠٩م

الإهـــداء

إِلَىٰ حَوَّاءَ الَّتِي مَيَّزَهَا اللهُ بِرِقَّةِ المَـشَاعِرِ، وَدِفْءِ العَوَاطِـفِ، وَصِـدْقِ الأَحَاسِـيسِ **أُقَـدِّمُ** هَـذِهِ الْهَمَـسَاتِ؛ **إِنَّ** الأَحْـرَىٰ والأَجْدَرَ بها، وبِـدَقَّاتِ قَلْبِهَـا الطَّـاهِرِ أن تَتَّجِـهَ نَحْـوَ دِينِهَـا الإِسْلَامِيِّ العَظِيمِ الَّذِي رَفَعَ قَـدْرَهَا، وأَعْـلَىٰ شَـأْنَهَا، وَجَعَـلَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيهَا، وَأَعْطَاهَا مِنَ الْجَلَالِ وَالْقَـدْرِ أَنْ جَعَلَ الرَّحِمَ مُشْتَقَّةً مِـنِ اسْـمِهِ الأَعْظَـمِ «الـرَّحْمَنِ الـرَّحِيمِ»؛ **وَجَاءَ** القُرْآنُ بِثَانِي أَكْبَرِ سُوْرَةٍ تَحْمِلُ اسْمَ "النِّسَاءِ"؛ تَخْلِيدًا لَهَا، وَاعْتِرَافًا بِدَوْرِهَا. **وَلَيْسَ** مِنْ بَابِ الـصُّدْفَةِ أَنْ تَكُـونَ خَدِيجَـةُ الكُـبْرَىٰ أُمَّ الإِسْـلَامِ الأُولَىٰ، وَأُمَّ الْمُـــؤْمِنِينَ الأُوْلَىٰ، وزَوْجُ وَحَبِيبَةُ رَسُـــولِ اللهِ ﷺ الأُولَىٰ، وَالحِصْنُ المَنِيعَ لِلدِّينِ ونَبِيِّـهِ العَظِيمِ -**بِجَانِبِ** الرَّجُـلِ مُمَـثَّلًا فِي أَبِي طَالِـبٍ عَـمِّ الرَّسُـــولِ ﷺ. **وَعِنْدَمَا** تَهَاوَىٰ هَذَانِ الشَّامِخَانِ العَظِيمَانِ- **أَعْلَنَ** النبـيُّ ﷺ الْحِدَادَ سَنَةً كَامِلَةً، وَسَمَّىٰ هَـذَا العَـامَ الَّـذِي مَاتَـتْ فِيـهِ خَدِيجَةُ وَأَبُو طَالِبٍ عَامَ الحَزَنِ.

أَقُـولُ: لَيْسَتْ مَوَاقِفُ خَدِيجَةَ مِنْ قَبِيلِ الصُّدْفَةِ؛ بَلْ لأَنَّهَا جَدِيرَةٌ بما فَعَلَتْ، وَوَاعِيَةٌ لِوَاجِبِهَا، مُدْرِكَةٌ لأَهَمِّيَّتِهَا، وَثِقَلِهَا، وتَأْثِيرِهَا!

فَهَلْ تَزْعُمِينَ بَعْدَ هَذَا أَنَّكِ هَامِشِيَّةٌ لَا تَقْدِرِينَ عَلَى التَّفْكِيرِ، وَأَنَّكِ عَاجِزَةٌ عَنْ فِعْلِ أَيِّ شَيْءٍ، وَأَنَّكِ مَا خُلِقْتِ إِلاَّ لِلزِّيْنَةِ، وَالْمُتْعَةِ، وَالأَكْلِ، والشُّرْبِ؟! **نَعَمْ**: أَنْتِ زِينَةُ الْحَيَاةِ، وَأَنْتِ لَذَّةُ الوُجُودِ، ومُتْعَةُ الخُلُودِ؛ **إِنْ** أَنْتِ حَمَلْتِ رَايَةَ أُمِّكِ خَدِيجَةَ، وَأَبْرَزْتِ شَخْصِيَّتَهَا الفَذَّةَ، وَإِرَادَتَهَا الصَّلْبَةَ، وإِيْمَانَهَا العَمِيقَ القَوِيَّ الصَّادِقَ! فَيَالَكِ مِنْ مِثَالٍ رَائِعٍ، ومَلَاكٍ كَرِيمٍ! **إِنْ** أَنْتِ تَمَرَّدْتِ عَلَى الشَّيْطَانِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَجْعَلَكِ مِنْ أَمْضَى أَسْلِحَتِهِ فِي مَعْرَكَتِهِ مَعَ اللهِ، ويُرَاهِنُ عَلَيْكِ لِتَكُونِي سَهْمَهُ الَّذِي لَا يَخِيبُ! **فَحَاوِلِي** جَهْدَكِ أن تُخَيِّبِيْ ظَنَّهُ، وَأَنْ تَسْحَبِي البِسَاطَ مِنْ تَحْتِ قَدَمَيْهِ اللَّعِينَتَيْنِ، **وَإِذَا تَسَاءَلْتِ** عَمَّا يَجِبُ أَنْ تَفْعَلِي فَسَأَدُلُّكِ عَلَى ذَلِكَ:

أولاً: اتْرُكِي الإِحْسَاسَ بِأَنَّكِ مَخْلُوقٌ مُهَمَّشٌ، والشُّعورَ بِأَنَّكِ كِيَانٌ نَاقِصٌ. **ثانيا:** تَعَلَّمِي تَارِيخَ نِسَاءٍ مَلأْنَ التَّارِيخَ شَرَفًا وَمَجْدًا، مِثْلَ:

1- حَوَّاءَ الَّتِي شَارَكَتْ آدَمَ فِي بِنَاءِ الأُسْرَةِ البَشَرِيَّةِ الأُولَى، وقَامَتْ بِدَوْرِ السَّكَنِ وَالْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، وَتَحَمَّلَتْ مَعَ آدَمَ آلاَمَ النُّزُوحِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَسَلَكَتْ مَعَ زَوْجِهَا طَرِيقَ التَّوْبَةِ وَالابْتِهَالِ إِلَى اللهِ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمَا.

2- آسِيَةَ بنتِ مُزَاحِم امرأةِ فِرْعَوْنَ الَّتِي تَحَدَّتْ زَوْجَهَا الْجَبَّارَ، وَكَسَرَتْ نَامُوسَهُ، وَأَعْلَنَتْ إِيمَانَهَا؛ فَكَانَتْ رَمْزَ الْبُطُولَةِ والإِيمَانِ والشَّجَاعَةِ وَالصَّبْرِ وَالثَّبَاتِ: **رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** [التحريم:11].

3- ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَانَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ، وَكَانَتْ مِثَالَ الطُّهْرِ، والعِفَّـةِ، وَالعِبَـادَةِ، وَالإِيمَـانِ، وَحَمَلَـتْ بِأَحَدِ العُظَمَاءِ مِنْ رُسُلِ اللهِ وَأَكْثَرِهِمْ أَتْبَاعًا.

4- ابْنَتَي شُعَيْبٍ بَطَلَتَي هذه الْقِصَّةِ.

5- خديجةَ بنتِ خُوَيْلِدٍ زَعيمَةِ بَنَاتِ حَوَّاءَ، وَرَائِـدَتِهِنَّ، أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ الكُبْرَىٰ، زَوْجِ خَـاتَمِ الرُّسُـــلِ، وَوَزِيـرِهِ، وأَنِيـسِهِ، وَجَلِيسِهِ، ومُسْتَوْدَعِ سِرِّهِ، وأُمِّ أَوْلاَدِهِ.

6- فَاطِمَةَ الزَّهْرَاءِ ابْنَةِ خَدِيجَةَ رَيْحَانَةِ أَبِيهَا، الْـمُقَرَّبَةِ مِـنْ رَبِّهَا، الْـمُفَضَّلَةِ عَلَىٰ نِـسَاءِ العَـالَمِينَ، زَوْجِ أَفْـضَلِ أَصْـحَابِ وَالِدِهَا، وَأَقْرَبِ الْمُقَرَّبِينَ لَهُ مِنْ بَنِي عَمِّهَا، وَأَشْجَعِ مَنْ مَشَىٰ وَيَمْشِي عَلَىٰ وَجْهِ الأَرْضِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ عليه السلام، أَنْجَبَتْ لَـهُ سَيِّدَيْ شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ الْحَسَنِ والْحُسَيْنِ عليهما السلام.

7- ابْنَتِهَا زَيْنَبَ الكُبْرَىٰ الجَلِيلَةِ القَـدْرِ، الـشَّامِخَةِ الْهَامَـةِ، الْمُنْتَصِبَةِ القَامَـةِ، التـي وَقَفَـتْ كَـالطَّوْدِ العَظِـيمِ، والـشَّامِخِ المَنِيـعِ، فِي فَاجِعَـةِ كَـرْبَلاَءَ، وَتَحَمَّلَـتْ صَـدْمَةَ قَتْـلِ أَخَوَيْهَـا: الحُـسْيِنِ، وَالعَبَّاسِ، وَعِشْرِينَ مِنْ نُجُومِ أَحْفَادِ أُمِّهَا الزَّهْـرَاءِ، وَفَلَذَاتِ كَبِدِ النَّبِيِّ وَعَبْدِ الـمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِـمٍ، وَسَـبْعِينَ مِـنْ أَنْصَارِ أَخِيهَا، وخَرَجَتْ مِنْ بَيْنِ الأَشْلاَءِ مَعَ النِّسَاءِ وَمَنْ بَقِـيَ مِنَ الأَطْفَالِ تَتَقَـدَّمُهَا رُؤُوسُ الأَحِبَّـةِ، تَـسُوقُهَا الْـمَطَايَا إِلَىٰ أَلْأَم خَلْقِ اللهِ طِينَةً، وَأَخْبَثِ بَنِي آدَمَ عَجِينَةً: عُبَيدِاللهِ بْنِ زِيَادٍ، ثُمَّ إِلَىٰ يَزِيدَ بْنِ مُعَاوِيَةَ.

8- أُمِّ سَلَمَةَ، وَنُسَيْبَةَ، وَالْخَنْسَاءِ، وَغَيْرِهِنَّ مِنَ الْعَظِيمَـاتِ الفَاضِلَاتِ. **تَقَبَّلِي** أَيَّتُهَا الْـمَرْأَةُ الفَاضِـلَةُ هَـذِهِ القِـصَّةَ، ومِـنْ بَعْدِكِ كُلُّ رَجُلٍ عَظِيمٍ أَسْهَمْتِ فِي عَظَمَتِـهِ، حَتَّـىٰ قِيـلَ: وَرَاءَ كُلِّ عَظِيمٍ امْرَأَةٌ.

بقلم/

د. المُرتضى بن زيد بن زيدٍ بن علّي المَحطُوري الحَسَنِي
صنعاء 6ربيع الآخر 1424هـ - الموافق 6 / 6 / 2003م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة:

لَعَلَّ القَارِئَ الكَرِيمَ يَتَقَبَّلُ هَذِهِ الدَرْدَشَةَ الَّتِي هِيَ نَابِعَةٌ مِنَ القَلْبِ، وكُتِبَتْ بِدَافِعِ الْمَحَبَّةِ، **أُحَاوِلُ** مِنْ خِلَالِهَا لَفْتَ الأَنْظَارِ الَّتِي تَسَمَّرتْ فِي هَذَا العَصْرِ المُبْهِرِ أَمَامَ الشَّاشَاتِ الفَضَائِيَّةِ، وَمَا يُعْرَضُ عَلَيْهَا مِنْ بَهْرَجَةٍ، وَإِغْرَاءٍ، وَنَقْلٍ حَيٍّ مُبَاشِرٍ، يَجْعَلُ الكِتَابَةَ بَاهِتَةَ الشَّكْلِ، ثَقِيلَةَ الظِّلِّ؛ **لِهَذَا** فَإِنْ تَسَبَّبْتُ فِي إِزْعَاجِكُمْ، وَشُغْلَتِكُمْ عَنْ مُلَاحَقَةِ بَعْضِ البَرَامِجِ؛ فَعَسَى أَنْ يَكُونَ هَذَا الإِزْعَاجُ مُفِيدًا: **وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** [البقرة:216]، **فَرُبَّمَا** أَرَحْتُكُمْ بِالْحَقِيقَةِ عَنِ السَّرَابِ؛ فَالْجَمَالُ الَّذِي يَشُدُّنَا إِلَى الشَّاشَاتِ إِنَّمَا هُوَ سِحْرٌ وَخِدَاعٌ فِي أَغْلَبِ أَحْيَانِهِ؛ **لِلْمَسَاحِيقِ** وَالطِّلَاءِ وَالتَّجَمُّلِ، وَالشَّعَرِ الْمُسْتَعَارِ، وَالصِّبَاغِ- **دَوْرٌ** ضَخْمٌ فِي رَسْمِ مَلَامِحِهِ؛ بِاسْتِخْدَامِ الأَجْسَامِ الْمَعْرُوضَةِ الَّتِي قَدْ يَكُونُ **بَعْضُهَا** مُصَابًا بِالأَمْرَاضِ الْمُعْدِيَةِ، **وَالبَعْضُ** الآخَرُ مِثْلُ الأَجِيرِ الْمُشْتَرَكِ، **وَبَعْضُهَا** صُوَرٌ قَدِيمَةٌ قَدْ مَاتَ أَصْحَابُهَا أَوْ شَاخُوا.

وَإِذَا كَانَ لَا مَحِيصَ لَا سَمَحَ اللهُ عَنْ ضَيَاعِ العُمُرِ وَالدِّينِ فِي تَقْلِيبِ القَنَوَاتِ- فَلَا يَنْبَغِي أَنْ نَسْتَسْلِمَ، مَسْحُورِينَ مَبْهُورِينَ مَأْسُورِينَ، وَلَكِنْ كَمَا قَالَ اللهُ سُبْحَانَهُ: **خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ** [التوبة:102]، وَعِنْدَمَا تَنَاوَلَ الإِمَامُ الْهَادِي هَذِهِ الآيَةَ أَشَارَ إِلَى أَنَّ الْعَمَلَ الصَّالِحَ بَعْدَ السَّيِّءِ.

وَإِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ ظَنِّي فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ، وَأَنَّ القَارِئَ مَا زَالَ قَارِئًا، وَلَيْسَ آلَةً فِي قَبْضَةِ الآلَةِ، وَهْوَ مُتَهَيِّئٌ مَعِي لِقِرَاءَةِ مَا أَسْتَنْبِطُهُ لَهُ مِنْ سُورَةِ القَصَصِ فِي شَأْنِ مُوسَى وَابْنَتَي شُعَيْبٍ؛ وَإِنْ بِنَظْرَةٍ كَلِيلَةٍ، وَفِكْرَةٍ عَلِيلَةٍ، إِلاَّ أَنَّهُ مِنْ وَحْيِ القُرْآنِ، وَمِنْ أَجْمَلِ القَصَصِ.

مِنْ أَوَّلِ مَا يَلْفِتُ النَّظَرَ فِي مَطْلَعِ السُّورَةِ التَّأْكِيدُ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كِتَابٌ عَرَبِيٌّ وَاضِحٌ مُبِينٌ: **بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ. طسٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡمُبِينِ** [الشعراء:1،2]؛ وَهَذَا يُفِيدُنَا أَنَّ مِنْ حَقِّ الإِنْسَانِ أَنَّ يُرَوِّجَ لِحُجَّتِهِ، وَأَنْ يَسْتَعْرِضَ مَزَايَاهَا إِنْ كَانَ صَادِقًا، وَإِنَّ أَصْدَقَ وَرَقَةٍ ثَقَافِيَّةٍ صَادِرَةٍ عَنِ اللهِ كَانَتْ وَمَا زَالَتْ نَقِيَّةً- هِيَ الْقُرْآنُ، ثُمَّ إِنَّ اللهَ دَعَا نَبِيَّهُ لِيُرْهِفَ السَّمْعَ؛ لِيَتْلُوَ عَلَيْهِ قِصَّةَ أَكْبَرِ رَمْزَيْنِ فِي الزَّمَنِ الغَابِرِ: رَمْزِ الْخَيْرِ

الَّذِي يُمَثِّلُهُ **مُوسَى**، وَرَمْزِ الشَّرِّ الَّذِي يُمَثِّلُهُ **فِرْعَوْنَ**: **نَتْلُواْ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** .

س: **مَا الَّذِي جَرَى؟** **ج:** مَخْلُوقٌ تَافِهٌ نَسِيَ أَنَّهُ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ، وَأَنَّهُ جَرَى فِي مَجْرَى الْبَوْلِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، **نَسِيَ** أَنَّهُ يَنْظُرُ بِشَحْمٍ، وَيَتَكَلَّمُ بِلَحْمٍ، وَيَتَنَفَّسُ مِنْ خَرْمٍ، وَيَسْمَعُ بِشِبْهِ عَظْمٍ، **نَسِيَ** أَنَّهُ تَقْتُلُهُ الشَّرْقَةُ، وتُنْتِنُهُ العَرْقَةُ، وتَجْرَحُهُ الشَّوْكَةُ، وَتُؤْذِيهِ البَقَّةُ، **نَسِيَ** أَنَّ أَوَّلَهُ نُطْفَةٌ مَذِرَةٌ، وَآخِرَهُ جِيفَةٌ قَذِرَةٌ، وَمَا بَيْنَهُمَا يَحْمِلُ العَذِرَةَ:

نَسِيَ الطِّينُ سَاعَةً أَنَّهُ طِيْـ ـنٌ حَقِيرٌ فَصَالَ تِيهًا وَعَرْبَدْ
وَكَسَى الخَزُّ جِسْمَه فَتبَاهَى وَحَوَى المَالَ كِيسُهُ فَتَمَرَّدْ[1]

س: مَاذَا فَعَلَ؟ ج: **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ** [القصص:4] يالطيف!!

س: **وَمَنْ هِيَ هَذِهِ الطَّائِفَةُ الَّتِي ذَبَّحَ أَبْنَاءَهَا؟ وَلِمَاذَا؟**

ج: **إِنَّهَا** طَائِفَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ دَخَلُوا مِصْرَ زَمَنَ يُوسُفَ بْنِ يَعْقُوبَ، **وَسَبَبُ ذَبْحِهِمْ**: الْخَوْفُ عَلَى مُلْكِهِ؛ إِذْ أَخْبَرَهُ

---

(1) من قصيدة رائعة لإيليا أبي ماضي.

الْـمُنَجِّمُونَ وَالْكُهَّانُ بِزَوَالِ مُلْكِهِ عَلَىٰ يَدِ مَوْلُودٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

س: وَهَلْ لِهَذَا السَّفَّاحِ مِنْ جَرَائِمَ أُخْرَىٰ؟

ج: **نَعَمْ:** فَقَدْ قَلْتُ: إِنَّهُ رَمْزُ الشَّرِّ فِي العَالَمِ القَدِيمِ، **إِنَّهُ** تَرَقَّىٰ فِي غُرُورِهِ حَتَّىٰ اخْتَصَرَ شَعْبَ مِصْرَ فِي شَخْصِهِ فَقَالَ: **مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ** [غافر:28]، وَتَمَادَىٰ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ **فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ** [النازعات:24] **فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ** [الزخرف:54]! **حَقًّا** إِنَّ الشُّعُوبَ الذَّلِيلَةَ الْـمَاجِنَةَ هِيَ الَّتِي تُهَيِّئُ الفُرْصَةَ، وَتَفْتَحُ الطَّرِيقَ لِلأَشْرَارِ وَالفَاسِدِينَ أَنْ يَرْكَبُوا أَقْفِيَتَهَا، وَأَنْ يَقُودُوهَا إِلَىٰ وَخِيمِ العَوَاقِبِ: **يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ** [هود:98] **ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ** [غافر:46].

س: هَلْ لِلْفَرْعَنَةِ مَلَامِحُ يُمْكِنُ إِبْرَازُهَا؟

ج: بِدُونِ شَكٍّ لِلْفَرْعَنَةِ وَالفَرَاعِنَةِ الْجَبَابِرَةِ وَالطُّغَاةِ مَلَامِحُ يُمْكِنُ تَصْوِيرُهَا وَتَصَوُّرُهَا وَلَكِنْ لَا يُمْكِنُ اسْتِيعَابُهَا.

س: كَيْفَ؟ وَلِمَاذَا؟ ج: أَمَّا الْمَلَامِحُ لِلْفَرْعَنَةِ فَأَبْرَزُهَا: الغُرُورُ

الزَّائِدُ، والكِبْرُ المُفْرِطُ، كَالبَعَرَةِ تَـدَّعِي أَنَّهَـا جَـوْهَرَةٌ، أَوِ الرَّوْثَـةِ تَقُولُ: أَنَا دُرَّةٌ، ثُمَّ تَزْعُمُ أَنَّهَا قَمَرٌ مُنِيرٌ، وَسِرَاجٌ مُـسْتَطِيرٌ، ثُـمَّ تَـذْهَبُ بَعِيـدًا فِي الْخَيَـالِ البَعَـرِيِّ فَتُحَقِّـرُ المَجَـرَّاتِ، وتُطَـاوِلُ الأَرَضِينَ وَالسَّمَاوَاتِ، ثُمَّ تُعْلِنُ بِفِعْلِ تَـصْفِيقِ البَعَـرِ، وَإِطْـرَاءِ الذَّرِّ، ونِفَاقِ الدُّودِ، وطَنِينِ الذُّبَابِ- أَنَّهَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ العُلَى، والأَرَضِينَ السُّفْلَى؛ هَذَا فِي مَجَالِ الأَوْهَامِ، وَالغُرُورِ، وَالكِبْرِ!

أَمَّـا فِي مَجَـالِ الـبَطْشِ فَـيُمْكِنُ تَقَبُّـلُ شَـنَاعَةِ مَـا يَفْعَلُـهُ الظَّالِـمُونَ مِنَ القَتْلِ بِمُجَرَّدِ الظَّنِّ وَالشَّكِّ، وَقَتْلِ مَنْ يَسْتَحِقُّ الْحَبْسَ، وَذَبْحِ مَنْ عِقَابُهُ اللَّوْمُ، أَمَّا أَنْ يُذَبَّحَ أَطْفَـالُ الْـمُتَّهَمِ أَمَامَ نَاظِرَيْهِ، وتُنْكَحَ نِسَاؤُهُ، ويُنْتَهَكَ عِرْضُهُ، وتُقَلَّعَ أظْفَـارُهُ، وأَشْفَارُ عَيْنَيْـهِ، وتُطْفَـأَ الـسَّجَائِرُ فِي الأَمَـاكِنِ الْحَـسَّاسَةِ مِـنْ جِسْمِهِ، وَيُعَلَّقَ مُنَكَّسًا، ويُنْفَخَ فِي دُبُرِهِ، ويُقَطَّعَ لَحْمُـهُ وَيُـرْغَمَ عَـلَى أَكْلِـهِ، ويُـسْقَى مِـنْ بَوْلِـهِ، إِلَى آخِـرِ مُسَلْـسَلِ الرُّعْـبِ وَالقَـسْوَةِ، وَالوَحْـشِيَّةِ، وَالانْحِطَـاطِ الإِنْـسَانِيِّ، وَالْمُـسْخِ الآدَمِـيِّ- فَـلاَ يُمْكِـنُ تَـصَوُّرُ ذَلِـكَ وَلَا تَقَبُّلُـهُ، ويَـسْتَحِيلُ اسْتِيعَابُ مَا نَسْمَعُ، وَيَصْعُبُ تَصْدِيقُ مَـا تَـوَاتَرَ أَنَّ الفِرْعَـوْنَ الطَّاغِيَةَ يَـأْمُرُ بِإِزَالَـةِ جَمِيـعِ الأُسْرَةِ مِـنَ الوُجُـودِ، ثُـمَّ القَرْيَـةِ

وَالقَبيلَـةِ، حَتَّـى الـسَّوائمِ وَالطُّيُـورِ وَكُـلِّ شَيْءٍ يَـدِبُّ عَـلَى الأَرْضِ، وَسَـحْقِ الأَحْجَـارِ وَالأَشْـجَارِ، وَحَـرْقِ الأَخْـضَرِ وَاليَابِسِ!! **كُلُّ** تِلْكَ الفَظَـائِعِ وَالفَجَـائِعِ، وَالخِسَّةِ، وَالـدَّنَاءَةِ الَّتِي تَفَتَّقَتْ عَنْهَا مَوَاهِبُ إِبْلِيسَ لَعَنَـهُ اللهُ، ونَفَّـذَهَا الْفَرَاعِنَـةُ أَخْزَاهُمُ اللهُ- هِـيَ اليَـوْمَ وَاقِـعٌ مَلْمُـوسٌ، **وَلَـسْتُ** أَدْرِي إِنْ كَانَتْ أَوَّلُ مَدْرَسةٍ لِلْفَظَاعَةِ، وَالخِسَّةِ البَشَرِيَّةِ الْـمُتَنَاهِيَةِ هِـيَ مَدْرَسَةُ فِرْعَونَ مُوسَى؟! لأَنَّ هُنَاكَ مَدْرَسَةَ قَابِيلَ، والنُّمْـرُودِ ونَحَوِهِمَا! **لَكِنِّي أَجْزِمُ** بِأَنَّهَا لَيْسَتْ أَوَّلَ مَدْرَسَةٍ لِلشَرِّ، **وَلَكِنَّهَا** أَوَّلُ مَدْرَسَةٍ للطُّغْيَانِ، والْفَسَادِ، والشُّذُوذِ، والتَّمَرُّدِ، والغَبَـاءِ الذي فَاقَ كُلَّ حَدٍّ، وجَاوَزَ كُلَّ وَصْفٍ، وَأَسَّسَ لِفَرَاعِنَةِ بنـي آدَمَ مَدْرَسَةً رَسْمِيَّةً ذَاتَ مَلاَمحَ نَقَـلَ الزَّمَـانُ عَـنْ تَلَامِيـذِهَا عَجَائِبَ وَغَرَائِبَ: **شَـاهَدْنَا** مِنْهَـا فِي عَـصْرِنَا الْحَـدِيثِ: قَـادَةَ الشُّيُوعِيَّةِ الْحَمْـرَاءِ فِي رُوسِـيَا، وَالنَّازِيَّـةِ فِي أَلْـمَانِيَا، وَالغُـزَاةِ البِيضِ فِي أَمْرِيكَا وَمَا وَرَاءَ الأَطْلَـسِي، وَأَبَـاطِرَةِ إِيطَالِيَـا، **وَفِي** عَالَمِنَا العَرَبِيِّ أَمْثِلَةٌ لَا تُحْصَى، **لَعَلَّ** مِنْ أَبْرَزِهَا قَـادَةَ البَعْـثِ فِي العِرَاقِ الَّـذِينَ نَكَبُـوا شَـعْبَ العِـرَاقِ ، ثُـمَّ سَـقَطُوا تَحْـتَ ضَرَبَـاتِ الْـمَارِينْـزِ الأَمْرِيكِـي عـام 2003م، **وَعَـلَى** إِثْـرِ

سُقُوطِهِمْ تَأَوَّهَ الْحِقْدُ عَلَيْهِمْ، وَتَهَاوَتِ الأَحْذِيَةُ عَلَى صُوَرِهِمْ! تُشْبِعُهَا صَفْعًا، وبَصْقًا، وَشَتْمًا، **وَظَهَرَتِ** الْمَقَابِرُ الْجَمَاعِيَّةُ لِلَّذِينَ دُفِنُوا أَحْيَاءً، أَوْ دَهْسًا بِالْجَنَازِيرِ، أَوْ خَنْقًا بِالْكِيمَاوِيَّاتِ، أَوْ رَمْيًا، أَوْ شَنْقًا، أَوْ بِأَيِّ وَسِيلَةٍ يُجِيدُهَا الطُّغَاةُ أَبْنَاءُ الشَّيْطَانِ!.

لَيْسَ هَذَا هُوَ الْمُشْكِلُ وَالْمُحَيِّرُ رَغْمَ أَنَّهُ أَكْثَرُ مِنْ مُشْكِلٍ وَمُحَيِّرٍ! **وَإِنَّمَا** الشَّيْءُ الْمُحَيِّرُ حَقًّا هُوَ حَجْمُ طَاقَةِ هَؤُلَاءِ الْمُجْرِمِينَ، وَجَلَدِهِمْ، وَقُوَّةِ تَحَمُّلِهِمْ عَلَى زَرْعِ الْقَتْلِ وَالدَّمَارِ فِي كُلِّ شِبْرٍ، وَفِي كُلِّ أُسْرَةٍ، وَعَلَى كُلِّ مُسْتَوَى! **حَتَّى** وَصَلَ شَرُّهُمْ وَأَذَاهُمْ إِلَى مَالَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ الْهَوَاءُ، وَالضَّوْءُ، وَالصَّوْتُ، وَالْخَيَالُ! **وَمِنْ** عَجَائِبِ الفَرَاعِنَةِ أَنَّهُمْ يَتَجَاوَزُونَ فِي الرَّفَاهِيَّةِ الَّتِي تَحْوِيهَا الْقُصُورُ وَالبَسَاتِينُ إِلَى أَنْ يَبْنُوا حَمَّامَاتِ البَوْلِ وَالغَائِطِ مِنَ الذَّهَبِ الْخَالِصِ، وَالْمَقَابِضُ مِنَ الذَّهَبِ، وَفُصُوصِ الدُّرِّ، وَالْيَاقُوتِ وَاللُّؤْلُؤِ، وَالمَاسِ؛ وَكَأَنَّهُمْ يَتَخَيَّلُونَ أَنَّ غَائِطَهُمْ زُبْدٌ، وَبَوْلَهُمْ عِطْرٌ، وَفُسَاءَهُمْ نَسِيمٌ، وَضُرَاطَهُمْ مَزَامِيرُ، وَمِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّهُمْ كَانُوا يَشُمُّونَ نَتَنَهُمْ وَجِيفَتَهُمْ؛ إِلاَّ أَنَّ جُنُونَ العظَمَةِ، وغِيَابَ الوَعْيِ وَالعَقْلِ جَعَلَهُمْ يَقْتَنِعُونَ وَيُحَاوِلُونَ إِقْنَاعَ أَجْهِزَتِهِمْ أَنَّ الْقَذَارَةَ

وَالْجِيفَةَ الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُمْ إِنَّمَا جَلَبَهَا الْـمُعَارِضُونَ لَهُمْ، وَالنَّـاقِمُونَ عَلَيْهِمْ!.

كَأَنِّي بِكَ أَيُّهَا القَـارِئُ الكَـرِيمُ تَتَـوَهَّمُ بَـأَنِّي مُبَـالِغٌ، أَوْ أَنِّي أَفْرَطْتُ فِي السُّخْرِيَّةِ، **لَكِنْ** سَيَزُولُ تَوَهُّمُكَ إِنْ قَلْـتُ لَـكَ: إِنَّ بَعْضَ هَؤُلَاءِ الدَّوَابِّ، وَهُوَ مِنْ أَفْرِيقِيَا، كَانَ لَهُ فِي كُـلِّ مَدِينَـةٍ عَالَمِيَّةٍ جَمِيلَةٍ قَصْرٌ فَخْمٌ، وَفِي كُلِّ سَاحِلٍ مُنْتَـزَهٌ، **وَكَـانَ** لَـهُ فِي بُنُوكِ الغَرْب (13) مِلْيَارَ دُوْلَارٍ تَتَنَـاطَحُ، وَكَـانَ إِذَا سَـافَرَ لَا يَنْزِلُ فِي أَيِّ قَصْرٍ مِنْ قُصُورِهِ؛ وَإِنَّمَا تُحْجَزُ لَهُ أَفْخَـمُ الفَنَـادِقِ، وَتُجْلَبُ لَهُ كُلُّ الْـمَلَذَّاتِ، وَتُرْسَلُ الطَّـائِرَاتُ الْخَاصَّـةُ لِجَلْـبِ العَاهِرَاتِ مِنْ غَرْبِ الدُّنْيَا وَشَرْقِهَا؛ وَلِأَنَّ الفِرْعَـونَ غَالِبًـا لَا فُحُولَةَ عِنْدَهُ وَلَا رُجُولَةَ، وَإِنَّمَا هُوَ عِبَارَةٌ عَنْ بَـالُونٍ مَنْفُـوخٍ؛ فَإِنَّهُ يَتَلَذَّذُ بِأَنْ تَضَعَ الْـمُومِسَاتُ أَقْدَامَهُنَ عَـلَى وَجْهِـهِ؛ مُقَابِـلَ أُجُورٍ بَاهِظَةٍ، اعْتَصَرَهَا مِنْ أَفْوَاهِ مَلَايِينِ الْحُفَاةِ العُـرَاةِ فِي بِـلَادِهِ؛ إِنَّ القَدَرَ لَيَسْخَرُ مِنْ آدَمِيٍّ يَرْتَعِدُ التِّمْسَاحُ خَوْفًا مِنْ قُبْحِ صُـورَتِهِ، وَبَشَاعَةِ مَنْظَرِهِ، وَكَآبَةِ وَجْهِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ يُوهِمُ نَفْسَهُ أَنَّـهُ مَعْـشُوقُ الْحُورِ العِينِ؛ وَأَكْثَرُ مِنْهُ شَاهُ إِيرَانَ الَّذِي نُسِفَ عَرْشُهُ عَـامَ 1979م ، وَمِثْلُهُمَا فِي العَالَمِ العَرَبِيِّ كَثِيرٌ، **وِفِي** اليَمَنِ شَـاهَدْنَا أَعْـدَادًا وَفِـيرَةً

مِنَ الْحُفَاةِ العُرَاةِ صَارُوا يَتَقَلَّبُونَ فِي الْمِلْيَارَاتِ مِنَ السَّلْبِ وَالنَّهْبِ؛ **إِنِّي** أَرَىٰ أُنَاسًا تُخَاطُ مَلَابِسُهُمْ فِي لَنْدَنَ، وتُصْنَعُ أَحْذِيَتُهُمْ مِنْ جُلُودِ الْحَيَّاتِ فِي إِيْطَالِيَا، وَتُجْلَبُ عُطُورُهُمْ مِنْ بَارِيسَ، وَهُمْ لَا يُسَاوُونَ قِيمَةَ خَيْطٍ مِنْ خُيُوطِ الأَحْذِيَةِ الَّتِي فِي أَقْدَامِهِمْ.

لُطْفُ اللهِ بعباده

رَغْمَ مَا قَالَهُ القُرْآنُ بِإِسْهَابٍ عَنِ الْفَرَاعِنَةِ؛ إِلَّا أَنَّ اللهَ يُرِيدُ أَنْ يَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ؛ فَصَاغَتْ يَدُ القَدَرِ فَصْلًا مُدْهِشًا بَيَّنَ لَنَا ضَعْفَ الفَرَاعِنَةِ خَاصَّةً، وَالبَشَرِ عَامَّةً: **وَلَدَتْ** أُمُّ مُوسَىٰ طِفْلَهَا، فَلَفَّتْهُ بِوَحْيٍ مِنَ اللهِ فِي صُنْدُوقٍ، وَأَلْقَتْهُ فِي نَهْرِ النِّيلِ، وَسَاقَهُ البَرِيدُ الإِلَهِيُّ إِلَىٰ الشَّاطِئِ الْمَلَكِيِّ الفِرْعَوْنِيِّ، ولِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: أَتَحَدَّاكَ أَيُّهَا العَبْدُ الذَّلِيلُ؛ فَهَأَنَذَا قَدْ أَرْسَلْتُ لَكَ الْقُنْبُلَةَ الَّتِي سَتُفَجِّرُ قَصْرَكَ؛ فَتَذَرُ مُلْكَكَ رَمَادًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ! سُبْحَانَ اللهِ!

لَقَدِ احْتَضَنَتِ الطِّفْلَ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ، وَأَلْقَى اللهُ عَلَيْهِ الْمَحَبَّةَ؛ فَاتَّخَذَهُ فِرْعَونُ لِنَفْسِهِ وَلَدًا ﴿**وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ**

لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَٰطِـِٔينَ﴾[القصص:8].

تَرَعْرَعَ مُوسَى عليه السلام فِي قَصْرِ فِرْعَونَ؛ إِلَّا أَنَّ مَلَاعِقَ الذَّهَبِ لَمْ تَسْلُبْ مِنْهُ صِفَاتِ الْخَيْرِ: كَالشَّهَامَةِ، وَالْحُرِّيَّةِ، وَالكَرَامَةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَعِرْفَانِ الْمَعْرُوفِ، وَنُكْرَانِ الْمُنْكَرِ؛ فَآتَاهُ اللهُ حُكْمًا وَعِلْمًا جَزَاءَ إِحْسَانِهِ.

خَرَجَ مُوسَى خِلْسَةً مِنَ القَصْرِ مُسْتَطْلِعًا أَحْوَالَ النَّاسِ، **وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ** (إِسْرَائِيلِي)، **وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ** [القصص:15] (قِبْطِيّ)، وَكَانَ القِبْطِيُّ يَنْهَالُ ضَرْبًا عَلَى الإِسْرَائِيلِي؛ لِيَسْتَعْبِدَهُ وَيُسَخِّرَهُ فِي خِدْمَتِهِ كَالْمُعْتَادِ؛ فَاسْتَغَاثَ الإِسْرَائِيلِيُّ بِمُوسَى؛ فَزَجَرَ القِبْطِيَّ فَلَمْ يَنْزَجِرْ؛ فَجَاشَتْ حَمِيَّةُ مُوسَى، وَكَرَاهِيَةُ الظُّلْمِ؛ فَسَدَّدَ لَكْمَةً قَوِيَّةً لِلْقِبْطِيِّ كَانَتْ كَافِيَةً فِي القَضَاءِ عَلَيْهِ، ثُمَّ إِنَّهُ نَدِمَ مُسْتَشْعِرًا أَنَّهُ عِقَابٌ مُبَالَغٌ فِيهِ؛ فَقَالَ: **رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ** [القصص:16]، وَعَاهَدَ اللهَ جَزَاءَ نِعْمَتِهِ أَلَّا يَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ -أَيْ مُعِينًا لَهُمْ- فَقَالَ: **رَبِّ**

بِمَآ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ فَلَنۡ أَكُونَ ظَهِيرٗا لِّلۡمُجۡرِمِينَ [القصص:17] تَوَجَّسَ بَعْدَهَا خِيفَةً مِنْ بَطْشِ فِرْعَونَ؛ فَأَصۡبَحَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِي ٱسۡتَنصَرَهُۥ بِٱلۡأَمۡسِ يَسۡتَصۡرِخُهُۥ [القصص:18]؛ أَزْعَجَ مُوسَى تَصَرُّفُ هَذَا الإِسْرَائِيلِيِّ الْـمُشَاغِبِ الَّذِي يُعَانِي الظُّلْمَ؛ لَكِنَّهُ لَمْ يُقَدِّرْ حَسَاسِيَّةَ الْـمَرْحَلَةِ، وَخُطُورَةَ الْـمَوْقِفِ؛ لِذَلِكَ زَجَرَهُ قَائِلًا: إِنَّكَ لَغَوِيّٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنۡ أَرَادَ أَن يَبۡطِشَ بِٱلَّذِي هُوَ عَدُوّٞ لَّهُمَا [القصص:18،19] إِذَا بِالإِسْرَائِيلِيِّ يَبُوحُ بِالسِّرِّ، وَيَكْشِفُ لِلنَّاسِ أَنَّ مُوسَى هُوَ الَّذِي قَتَلَ الفِرْعَونِيَّ بِالأَمْسِ، قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقۡتُلَنِي كَمَا قَتَلۡتَ نَفۡسَۢا بِٱلۡأَمۡسِۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلۡمُصۡلِحِينَ [القصص:20]؛ وَهُنَا انْكَشَفَ مُوسَى وَصَارَ فِي دَائِرَةِ الْخَطَرِ؛ وَالسَّبَبُ تَسَرُّعُ الإِسْرَائِيلِي، وَضَعْفُ تَدْبِيرِهِ، وَسُوءِ ظَنِّهِ؛ حَيْثُ قَدَّرَ أَنْ مُوسَى حِينَ غَضِبَ يُرِيدُ أَنْ يُوَجِّهَ لَهُ لَكْمَةً قَاضِيَةً؛ فَبَاحَ لِلْمَارَّةِ أَنَّ الَّذِي قَتَلَ القِبْطِيَّ بِالأَمْسِ هُوَ مُوسَى.

مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ

أَهْلُ الْخَيْرِ مَوْجُودُونَ عَبْرَ الأَزْمَانِ؛ فَلَا يَعْدَمُ الصَّالِحُونَ وَأَصْحَابُ الضَّمَائِرِ الْحَيَّةِ، وَالقُلُوبِ النَّقِيَّةِ فِي كُلِّ زَمَانٍ وَمَكَانٍ، حَتَّى مِنْ مُحِيطِ الفَرَاعِنَةِ! أَلَيْسَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ هِيَ الَّتِي تَبَرَّأَتْ مِنْ زَوْجِهَا وَعَمَلِهِ؟! وَسَجَّلَ القُرْآنُ اعْتِرَاضَها ضِدَّ زَوْجِهَا مُجْرِمِ التَّارِيخِ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم :11] وَهِيَ الَّتِي أَنْقَذَتْ مُوسَى مِنَ الذَّبْحِ، وَزَيَّنَتْ لِفِرْعَونَ اتِّخَاذَهُ وَلَدًا ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ ! سُبْحَانَ اللهِ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ!! وَهَاهُوَ حَيٌّ آخرُ إِنَّهُ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَونَ اسْتَيْقَظَ ضَمِيرُهُ بِجِوارِ الزَّكِيَّةِ النَّقِيَّةِ امْرَأَةُ فِرْعَونَ؛ فَسَمِعَ الْهَمْسَ حَوْلَ مُوسَى، وَالمُؤَامَرَةَ عَلَى قَتْلِهِ؛ فَبَادَرَ إِلَيْهِ مُحَذِّرًا: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص:20].

وَمِنْ شَأْنِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ ذَكِيًّا فَطِنًا قَوِيًّا، يَتَّخِذُ القَرَارَ الصَّائِبَ بِسُرْعَةٍ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ مُوسَى عليه السلام **فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ** مُتَوَكِّلًا عَلَى اللهِ، سَائِلًا مِنْهُ السِّتْرَ وَالسَّلَامَةَ، قَائِلًا: **رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** [القصص:21].

س: إِلَى أَيْنَ سَيَذْهَبُ؟ ج: كَمَا قُلْتُ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ القَوِيَّ خَيْرٌ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَمِنَ **القُوَّةِ**: العِلْمُ، والْمَعْرِفَةُ، والخِبْرَةُ بِأَحْوَالِ الزَّمَانِ، وَالنَّاسِ، وَالْجُغْرَافِيَا، وُهْوَ مَا أَتْقَنَهُ مُوسَى؛ فَقَدْ عَرَفَ كُلَّ ذَلِكَ، وَعَرَفَ حُدُودَ سُلْطَانِ فِرْعَونَ، وَالْحَوَاجِزَ الَّتِي تَمْنَعُهُ مِنْ اقْتِحَامِهَا؛ فَقَرَّرَ أَنْ يَذْهَبَ إِلَى مَدْيَنَ؛ بِاعْتِبَارِهَا أَقْرَبَ مَنْطِقَةٍ خَارِجَ نُفُوذِ فِرْعَونَ، أَوْ هِيَ الأَنْسَبُ.

موسى في مدين

وهنا تبدأُ قِصَّةٌ من أَعْجَبِ قَصَصِ النُّبْلِ والرُّجُولَةِ والرَّحْمَةِ وَالْحُبِّ الطَّاهِرِ، وَالوَفَاءِ النَّادِرِ، وَالْمَعْرُوفِ الْخَالِد:

وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ [القصص:23] **هكذا** أَلْقَى هَذَا الغَرِيبُ نَظْرَةً سَرِيعَةً فَاحِصَةً عَلَى الْجَمْعِ الْحَاشِدِ مِنَ الرُّعَاةِ؛ **فَلَمَحَ** فِي جَانِبٍ مِنَ النَّاسِ فَتَاتَيْنِ تُكَفْكِفَانِ غَنَمَهُمَا فِي جَهْدٍ وَعَنَاءٍ **وَوَجَدَ مِن**

دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ فنسِيَ أَوْ تَنَاسَى مَا هُوَ فِيهِ مِنْ غُرْبَةٍ، وَخَوْفٍ، وَتَعَبِ سَفَرٍ طَوِيلٍ؛ فَدَفَعَتْهُ شَهَامَتُهُ لِلْاقْتِرَابِ مِنْهُمَا تَعْلُو وَجْهَهُ بَسْمَةُ الْوَقَارِ، وَبَهَاءُ الحَيَاءِ، وَمَلامِحُ الرَّحْمَةِ مَمْزُوجَةً بِالرُّجُولَةِ؛ فَافْتَرَّتْ شَفَتَاهُ قَائِلاً: **مَا خَطْبُكُمَا** ؟ مَالَكُمَا لَا تَسْقِيَانِ مَعَ النَّاسِ وَتَخُوضَانِ غِمَارَ الزِّحَامِ؟ **فَأَجَابَتَاهُ** بِأَدَبٍ جَمٍّ، وحَيَاءٍ أَصِيلٍ، وعِفَّةٍ تُعَطِّرُ الدُّنْيَا عِزَّةً، وكَرَامَةً، وَأَنَفَةً، وَاعْتِدَادًا بِالمَبَادِئِ، وَالْتِزَامًا بِالسُّلُوكِ الكَرِيمِ، مَعَ إِشَارَةٍ إِلَى شَيْءٍ مِنْ قَسْوَةِ الزَّمَانِ الَّذِي أَلْجَأَهُمَا إِلَى تَحَمُّلِ أَعْبَاءِ الأُسْرَةِ؛ بِسَبَبِ شَيْخُوخَةِ وَالِدِهِمَا، وضَمَّنَتَا كَلَامَهُمَا الْـمُقْتَضَبَ مَبَادِئَ عِلْمِ الأَخْلَاقِ، وَدُسْتُورَ: «الإِنْسَانُ الْـمُنَاسِبُ فِي الْـمَكَانِ الْـمُنَاسِبِ»، وقَوَاعِدَ الذَّوْقِ، وَالأَخْلَاقِ الرَّفِيعَةِ: **قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ، نَحْنُ مِنْ أُسْرَةٍ مُحْتَرَمَةٍ، تَمْنَعُ تَقَالِيدُهَا كَرَائِمَهَا مِنَ الاحْتِكَاكِ بِالأَجَانِبِ، وَمُزَاحَمَةِ الغُرَبَاءِ؛ **وَالْمَرْأَةُ** – وَإِنْ مَارَسَتِ العَمَلَ فِي أَيِّ شَكْلٍ مِنْ أَشْكَالِهِ–إِلَّا أَنَّهَا مَا زَالَتْ مِثْلَ سَوَادِ العَيْنِ؛ لَا يَجُوزُ التَّفْرِيطُ بِأُنُوثَتِهَا، وَلاَ يَصِحُّ خَدْشُ حَيَائِهَا؛ **وَالاخْتِلَاطُ** وَالْـمُزَاحَمَةُ خَطَرٌ عَلَى حَدَقَةِ العَيْنِ؛ فَقَدْ تُصَابُ بِالْقَذَى الَّذِي قَدْ يُؤَدِّي إِلَى العَمَى؛ فَلَا تَأْمَنُ الْـمَرْأَةُ من

غَامِزٍ أَوْ لَامِزٍ، فَكَمْ فِي الغَوْغَاءِ مِنْ دَنِيءِ الهِمَّةِ، سَاقِطِ النَّفْسِ، طَوْيِلِ العَيْنِ! **فَلْنَنْتَظِرْ** وَإِنْ شَقَّ عَلَيْنَا الانْتِظَارُ، وَلْنُوَاجِهِ الوَاقِعَ بِثَبَاتٍ وَصَبْرٍ؛ فَأَبُونَا لَا يَقْدِرُ عَلَى نَجْدَتِنَا؛ لِكِبَرِ سِنِّهِ، وَعَجْزِهِ عَنِ السَّعْيِ!

وَهُنَا تَدَفَّقَتْ يَنَابِيعُ الرَّحْمَةِ، وَسَالَتْ أَنْهَارُ الحَمِيَّةِ، وَفَاضَتْ رَوَافِدُ الرُّجُولَةِ وَالشَّهَامَةِ وَالنَّخْوَةِ؛ وَانْدَفَعَ مُوسَى أَمَامَ الغَنَمِ وَلِسَانُ حَالِهِ يَقُولُ: لَسْتُ لِعِمْرَانَ، وَلَا ابنَ يَعْقُوبَ، وَلَا حَفِيدَ إِبْرَاهِيمَ؛ إِنْ لَمْ آخُذْ لَكُمَا حَقَّكُمَا، وَأَرْفَعْ بَيْنَ الْمَلَإِ قَدْرَكُمَا! **فَسَقَى** لَهُمَا بَعْدَ أَنْ أَلْقَى عَلَى الرُّعَاةِ دَرْسًا مُوجَزًا عَرَّفَهُمْ: الِاحْتِرَامَ، والتَّقْدِيرَ، وَحُقُوقَ الْمَرْأَةِ، وَالطِّفْلِ، وَالشَّيْخِ الضَّعِيفِ، **وَبَعْدَ** أَنْ أَكْمَلَ مُهِمَّةَ تَوْعِيَةِ الرُّعَاةِ، وَارْتَوَتِ الغَنَمُ، وطَيَّبَ خَاطِرَ الفَتَاتَيْنِ- **لَمْ يَنْتَظِرْ** ثَنَاءَهُمَا، وَلَمْ يُسَارِقْهُمَا نَظَرَاتِ الإِعْجَابِ، مَعَ أَنَّهُ قَدْ خَطَفَ العُقُولَ، وَسَلَبَ القُلُوبَ، وَاسْتَحْوَذَ عَلَى الْمَشَاعِرِ وَبِمَا قَدَّمَ مِنْ حَمِيدِ الْمَآثِرِ، **بَلْ** ذَهَبَ إِلَى ظِلِّ شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ، وَبَدَأَ يُنَاجِي رَبَّه مُغْتَبِطًا شَاكِيًا إِلَى اللهِ حَاجَتَهُ؛ فُهْوَ مُسَافِرٌ، جَائِعٌ، مُطَارَدٌ: **فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ! يَا إِلَهِي أَنَا مُحْتَاجٌ لِأَيِّ خَيْرٍ

عَاجِلٍ يَنْزِلُ مِنْكَ عَلَيَّ؛ **قَالَ الإِمَامُ عَلِيٌّ** عليه السلام بَعْدَ قَوْلِ اللهِ تَعَالَىٰ عَلَىٰ لِسَانِ مُوسَىٰ: ﴿**رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**﴾: وَاللهِ مَا سَأَلَهُ إِلاَّ خُبْزًا يَأْكُلُهُ؛ لأَنَّهُ كَانَ يَأْكُلُ بَقْلَةَ الأَرْضِ، وَلَقَدْ كَانَتْ خُضْرَةُ الْبَقْلِ تُرَىٰ مِنْ شَفِيفِ صِفَاقِ بَطْنِهِ؛ لِهُزَالِهِ وَتَشَذُّبِ لَحْمِهِ[1].

وَقَدْ أَوْدَعَ اللهُ سَمْعَ الفَتَاتَيْنِ هَذِهِ الْمُنَاجَاةَ الْحَمِيمَةَ؛ فَطَارَتَا مَعَ الغَنَمِ إِلَىٰ الشَّيْخِ الْجَلِيلِ وَالِدِهِمَا نَبِيِّ اللهِ شُعَيْبٍ[2]؛ فَتَعَجَّبَ مِنْ إِيَابِهِمَا الْمُبَكِّرِ! **فَأَخْبَرَتَاهُ**: بِأَنَّ شَابًّا غَرِيبًا مُحْتَرَمًا كَرِيمًا نَبِيلًا سَقَىٰ لَهُمَا الغَنَمَ، وَهُوَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ، **وَقَالَتَا لِأَبِيهِمَا**: يَا أَبَتَاهُ **أَفَلَا** نُكْرِمُهُ وَنُكَافِئُهُ عَلَىٰ مَعْرُوفِهِ، وَنَرْحَمُ غُرْبَتَهُ كَمَا رَحِمَ ضَعْفَنَا، فَتَصْنَعَ إِحْدَانَا طَعَامًا، وَتَذْهَبَ الأُخْرَىٰ لإِحْضَارِهِ؟ **فَتَهَلَّلَ** وَجْهُ الشَّيْخِ الوَقُورِ شَاكِرًا رَبَّهُ أَنْ رَزَقَهُ هَاتَيْنِ الدُّرَّتَيْنِ اليَتِيمَتَيْنِ، وَالْجَوْهَرَتَيْنِ النَّادِرَتَيْنِ اللَّتَيْنِ حَفِظَتَا تَأْدِيبَهُ، وَكَرِيمَ

(1) يَرَىٰ الْحَسَنُ البَصْرِيُّ، وَمَالِكٌ، وَأَكْثَرُ الْمُفَسِّرِينَ أَنَّ الشَّيْخَ هُوَ شُعَيْبٌ النَّبِيُّ عليه السلام، وَجَزَمَ بِهِ فِي الكَشَّافِ، وَيَرَىٰ آخَرُونَ أَنَّه لَيْسَ شُعَيْبًا النَّبِيَّ بَلْ هُوَ رَجُلٌ آخَرُ، وَقِيلَ: هُوَ يَثْرُونَ، أَوْ يَثْرِبُ ابنُ أَخِي شُعَيْبٍ. مجمع البيان 428/7، والكشاف 402/3.

(2) نهج البلاغة من خطبة عليه السلام رقم (١٥٧ أو ١٥٨) أولها: أَمْرُهُ قَضَاءٌ وَحِكْمَةٌ، وَرِضَاهُ أَمَانٌ وَرَحْمَةٌ، يَقْضِي بِعِلْم، وَيَعْفُو بِحِلْم.

تَرْبِيَتِهِ؛ **فَأَجَابَ:** حَقًّا حَقًّا إِنَّ لِهَذَا الْفَتَى عَلَيْنَا حُقُوقًا كَثِيرَةً.

س: وَمَا هِيَ يَا أَبَتَاهُ؟ ج: سَأَذْكُرُ لَكُمَا أَهَمَّهَا، فَمِنْهَا:

1- حَقُّ الْمُكَافَأَةِ؛ فَمَنْ صَنَعَ لَكَ مَعْرُوفًا وَجَبَتْ مُكَافَأَتُهُ وَلَوْ بِالشُّكْرِ وَالدُّعَاءِ، **وَنَحْنُ** سُنُكَافِئُهُ بِأَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ.

2- حَقُّ الضِّيَافَةِ لِلْغَرِيبِ، وَأَقَلُّهَا ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ.

3- حَقُّ تَأْمِينِ الخَائِفِ، وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ، وَنُصْرَةِ الْمَظْلُومِ.

4- حَقُّ تَنْزِيلِ النَّاسِ مَنَازِلَهُمْ، **وَهَذَا** شَابٌّ نَادِرُ الْمِثَالِ؛ **ثُمَّ** إِنَّ ضَيَاعَ الفُرْصَةِ **غُصَّةٌ، وَقَدْ** أَهْدَى اللهُ إِلَيْنَا هَذَا الفَتَى؛ فَلْتَذْهَبْ إِحْدَاكُنَّ لِإِحْضَارِهِ؛ فَانْطَلَقَتْ إِحْدَى الأُخْتَيْنِ بَعْدَ مَا رَتَّبَتْ مَعَ أُخْتِهَا مَرَاسِمَ الاسْتِقْبَالِ، وَعَنَاصِرَ الوَجْبَةِ؛ فَاتَّفَقَتَا عَلَى ذَبْحِ كَبْشٍ سَمِينٍ مِنْ خِيَارِ الكِبَاشِ الَّتِي اسْتَقَتْ مِنْ كَفِّ مُوسَى، وذُبِحَ على الفَوْرِ، ووُضِعَ عَلَى النَّارِ، فَبَادَرَتْ صَوْبَ مُوسَى، وَتَرَكَتْ لِأُخْتِهَا تَجْهِيزَ الْخُبْزِ الحَارِّ؛ رَيْثَمَا تَعُودُ بِالضَّيْفِ الكَرِيمِ، وَالشَّابِّ العَزِيزِ، وَأَطْلَقَتْ قَدَمَيْهَا لِلرِّيحِ؛ لِكِنَّهَا لَمَّا اقْتَرَبَتْ كَانَتْ تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ، فَوَجَدَتْ مُوسَى مُسْتَلْقِيًا تَحْتَ الشَّجَرَةِ كَمَا تَرَكَتْهُ، **وَكَأَنَّ** إِحْسَاسَهُ قَدْ قَالَ لَهُ:

أَنْتَ عَلَى مَوْعِدٍ مَعَ الفَرَجِ العَاجِلِ، وَالْخَيْرِ القَرِيبِ؛ **فَإِذَا** بِالْفَتَاةِ وَاقِفَةٌ، **فَقَالَتْ**: سَيِّدِي تَفَضَّلْ بِالْقِيَامِ مَعِي فَإِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ: **فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِي عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا** هَكَذَا أَوْضَحَتْ لَهُ الْمُهِمَّةَ، وَسَكَتَتْ عَلَى مَخْزُونٍ هَائِلٍ مِنَ الوُدِّ، وَالتَّقْدِيرِ، وَالإِعْجَابِ؛ **وَلَمْ تَكُنِ** التَّرْبِيَةُ وَالأَخْلَاقُ تَسْمَحُ لِمُوسَى وَالفَتَاةِ أَنْ يَدْخُلَا فِي الْحَدِيثِ الدَّافِئِ الَّذِي يَجْلِبُهُ الْحُبُّ مِنْ أَوَّلِ نَظْرَةٍ عَنْدَ شَبَابِ هَذَا الزَّمَانِ:

نَظْرَةٌ فَابْتِسَامَةٌ فَسَلَامٌ فَكَلَامٌ فَمَوْعِدٌ فَلِقَاءُ

مِنْ حَقِّ الإِنْسَانِ أَنْ يَخْفِقَ قَلْبُهُ بِالْحُبِّ نَبِيًّا كَانَ أَوِ ابْنَةَ نَبِيٍّ؛ **لَكِنْ** لَيْسَ مِنْ حَقِّهِ أَنْ يُحَوِّلَ الْحُبَّ الطَّاهِرَ إِلَى عَلَاقَةٍ غَيْرِ طَاهِرَةٍ؛ لِذَلِكَ فَهِمَ مُوسَى رِسَالَةَ الفَتَاةِ، وَانْطَلَقَ وَرَاءَهَا، فَمَا هِيَ إِلَّا خُطُوَاتٍ حَتَّى قَالَ لَهَا: سَيِّدَتِي، أَرْجُو أَنْ تَتَفَضَّلِي بِالسَّيْرِ خَلْفِي؛ لِتَكُونِي فِي حُرِّيَّةٍ وَرَاحَةٍ وَعَدَمِ كُلْفَةٍ، وَيَكْفِي أَنْ تَدُلِّينِي عَلَى الطَّرِيقِ بِقَوْلِكِ: يَمِينَ ، شِمَالَ؛ **فَازْدَادَ** احْتِرَامُ الفَتَاةِ وَإِعْجَابُهَا، **وَذَهَبَتْ** بِهَا الْمَشَاعِرُ مَذَاهِبَهَا مُتَسَائِلَةً فِي نَفْسِهَا: **مِنْ** أَيْنَ هَبَطَ هَذَا الفَتَى؟ **مِنْ** أَيِّ سُلَالَةٍ يَنْحَدِرُ؟ **مِنْ** أَيْنَ رُزِقَ هَذَا الْمَخْزُونَ

الْـمُدْهِشَ مِنَ القُوَّةِ، وَالشَّهَامَةِ، وَالنُّبْـلِ، وَالْـمُرُوءَةِ، وَالأَدَبِ، وَالْخُلُقِ، وَالوَقَارِ، وَالعِفَّةِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالشَّفَقَةِ، وَالْحَنَانِ، وَالطَّهَارَةِ ؟ إِلَىٰ آخِرِ الصِّفَاتِ الْحَسَنَةِ، وَمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ.

فَلَمَّا وَصَلَ بَيْتَ شُعَيْبٍ حَيَّاهُ تَحِيَّةَ الابْنِ لِلْوَالِدِ، تَحِيَّةَ أَبْنَاءِ الأَنْبِيَاءِ لِلأَنْبِيَاءِ، كَمَا أَخْبَرَ عَلَّامُ الغُيُوبُ: **فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ** رَبَّتَ عَلَىٰ كَتِفِهِ وَطَمْأَنَهُ: **قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ** ؛ فَقَدْ خَرَجْتَ مِنْ مَمْلَكَةِ فِرْعَوْنَ، وَأَفْلَتَّ مِنْ دَائِرَةِ نُفُوذِهِ؛ فَلَا سُلْطَانَ لَهُ عَلَىٰ هَذِهِ البِلَادِ، **وَاسْتَرْسَلَ قَائِلاً**: تَفَضَّلْ يَا بُنَيَّ فَاخْلَعْ ثِيَابَ السَّفَرِ، وَأَلْقِ عَصَا التَّرْحَالِ، وَطِبْ نَفْسًا، وَقَرَّ عَيْنًا، وَاهْدَأْ رَوْعًا؛ فَقَدْ قَادَكَ حُسْنُ الطَّالِعِ، وَهَدَاكَ جَمِيلُ الْحَظِّ إِلَىٰ بَيْتِ نَبِيٍّ يَوَدُّ أَنْ يَشْكُرَكَ وَيُكَافِئَكَ عَلَىٰ مَعْرُوفِكَ وَإِحْسَانِكَ إِلَىٰ ابْنَتَيْهِ بَسْقِي الغَنَمِ! **هَكَذَا** دَارَ الْحَدِيثُ الوُدِّيُّ، وَالشَّيْخُ الوَقُورُ يَرْمُقُ مُوسَىٰ، وَيَتَفَحَّصُ مَلَامِحَهُ، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ طَرْفُهُ نَاقِلًا فُتُوَّةً ظَاهِرَةً، وَأَثَرَ نِعْمَةٍ، وَمَخَائِلَ عِزٍّ وَشَرَفٍ وَرِئَاسَةٍ؛ لأَنَّ مُوسَىٰ تَرَبَّىٰ فِي قُصُورِ فِرْعَوْنَ، وَتَقَلَّبَ فِي بُحْبُوحَةِ الرَّفَاهِيَّةِ وَالنَّعِيمِ والعِزِّ؛ لأَنَّهُ كَانَ بِمَثَابَةِ ابْنٍ لِلْفِرْعَوْنِ الإِلَهِ! **ثُمَّ** مَا مَلَأَ قَلْبَ

شُعَيْبٍ وَعَقْلَهُ مِنْ ثَنَاءِ ابْنَتَيْهِ عَلَيْهِ، **ثُمَّ** مَا سَمِعَهُ وَشَاهَدَهُ: مِنْ سَلَامِهِ، وَكَلَامِهِ، وَحَرَكَاتِهِ؛ فَأَدْرَكَ أَنَّهُ شَابٌّ اسْتِثْنَائِيٌّ، وَفَتًى غَيْرُ عَادِيٍّ؛ **فَدَارَتِ** الأَفْكَارُ فِي رَأْسِ الشَّيْخِ حَوْلَ وَضْعِ مُوسَى فِي العَائِلَةِ؛ **إِذْ** أَدْرَكَ أَنَّ بَيْتَهُ مُحْتَاجٌ لِهَذَا الفَتَى النَّبِيلِ لَكِنَّهُ صَمَتَ قَلِيلًا رَيْثَمَا غَيَّرَ مُوسَى ثِيَابَهُ، وَغَسَلَ يَدَيْهِ، وَتَهَيَّأَ لِتَنَاوُلِ طَعَامِ الضِّيَافَةِ.

وَقَدِ انْضَمَّتِ الفَتَاةُ الَّتِي ذَهَبَتْ لِإِحْضَارِ مُوسَى إِلَى أُخْتِهَا، وَاشْتَرَكَتْ مَعَهَا فِي إِعْدَادِ الطَّعَامِ لِهَذَا الضَّيْفِ العَزِيزِ، وَالوَافِدِ الكَرِيمِ، وَأَخْبَرَتْ أُخْتَهَا بِمَا اكْتَشَفَتْهُ مِنْ مَزَايَا مُوسَى حِينَ لَمَحَ حَيَاءَهَا فِي مِشْيَتِهَا، فَخَاطَبَهَا فِي إِجْلَالٍ وَرَحْمَةٍ وَحَيَاءٍ وَذَوْقٍ رَفِيعٍ وَتَقْدِيرٍ وَرِفْقٍ أَرَقَّ مِنَ النَّسِيمِ ، طَالِبًا مِنْهَا السَّمَاحَ لَهُ أَنْ يَمْشِيَ أَمَامَهَا، قَائِلَةً لِأُخْتِهَا: إِنَّهُ قَوِيٌّ أَمِينٌ، شَهْمٌ، كَرِيمٌ؛ **فَبَادَلَتْهَا** نَفْسَ الشُّعُورِ **وَقَالَتْ**: مَا أَظُنُّهُ بَشَرًا إِنْ هُوَ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ، وَلَعَلَّكِ مُتَّفِقَةٌ مَعِي أَنَّ بَيْتَ شُعَيْبٍ مُحْتَاجٌ إِلَى رَجُلٍ، وَلَنْ نَجِدَ مِثْلَ هَذِهِ الهَدِيَّةِ الَّتِي أَرْسَلَهَا اللهُ لَنَا؛ وَإِنَّ مَنْطِقَ العَقْلِ وَالعَاطِفَةِ وَالوَاقِعِ يَقْضِي بِأَنْ يَبْقَى عِنْدَنَا، وَأَنْ لَا يَضِيعَ مِنْ أَيْدِينَا؛ وَلَا سِيَمَا وَقَدْ شَاهَدْنَا سَوِيًّا، وَلَمَسْنَا مَعًا

أَنَّ طِبَاعَهُ مِثْلُ طِبَاعِنَا، وَأَخْلَاقَهُ مِثْلُ أَخْلَاقِنَا؛ وَكَأَنَّمَا تَرَبَّى عَلَى يَدِ أَبِينَا؛ فَفَكِّرِي بِسُرْعَةٍ مَعِي حَوْلَ الطَّرِيقَةِ الْمُنَاسِبَةِ الَّتِي نُدْخِلُهُ مِنْهَا إِلَى العَائِلَةِ.

دَقَّ قَلْبُ الأُخْتِ بِقُوَّةٍ، وَسَارَقَتْ أُخْتَهَا نَظَرَاتِ الْحَيَاءِ وَالتَّكَرُّمِ، وَصَمَتَتْ وَتَرَكَتْ لِأُخْتِهَا الكُبْرَى أَنْ تُوَاصِلَ الْحَدِيثَ، **فَقَالَتْ**: لَا وَقْتَ لِلصَّمْتِ؛ فَالطَّعَامُ جَاهِزٌ، وَالضِّيَافَةُ إِنْ لَمْ تَكُنْ بِالمُسْتَوَى الَّذِي يَلِيقُ بِبَيْتِ شُعَيْبٍ وَمَقَامِ مُوْسَى **فَهِيَ** نَاقِصَةٌ، وَلَا تَدُلُّ عَلَى الْمُرُوءَةِ وَالوَفَاءِ وَحُسْنِ المُكَافَأَةِ؛ وَلِهَذَا أُصَارِحُكِ أَنَّ إِحْدَانَا يَجِبُ أَنْ تَكُونَ زَوْجًا لِمُوسَى حَالًا؛ فَهْوَ الرَّجُلُ المُنَاسِبُ فِي المَكَانِ المُنَاسِبِ؛ وَلَنْ نَجِدَ أَفْضَلَ وَلَا أَكْرَمَ مِنْهُ! أَلَمْ تُشَاهِدِي مَعِي أَنَّهُ حَازَ كُلَّ شُرُوطِ الكَفَاءَةِ، وَجَمَعَ كَافَّةَ صِفَاتِ الرِّجَالِ الْحَمِيدَةِ؟!

ازْدَادَتْ ضَرَبَاتُ قَلْبِ الصُّغْرَى، وَتَسَاقَطَتْ حَبَّاتُ العَرَقِ كَأَنَّهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ، وَانْعَقَدَ لِسَانُهَا فَلَمْ تَقْدِرْ عَلَى الكَلَامِ؛ **فَقَالَتِ** الكُبْرَى مُمَازِحَةً أُخْتَهَا الصُّغْرَى: مَالَكِ لَا تَتَكَلَّمِينَ أَيَّتُهَا المَاكِرَةُ؟! أَمَا تَرْضَيْنَ بِمُوسَى زَوْجًا يَصُونُكِ

وَيَصُونُنِي، وَيَقُومُ بِخِدْمَةِ أَبِي؟ أَهَذَا وَقْتُ الصَّمْتِ؟! **فَقَالَتْ**: بَلْ أَنْتِ أَوْلَىٰ بِهِ؛ لِأَنَّكِ الكُبْرَىٰ، وَسَأَتَكَفَّلُ أَنَا بِخِدْمَةِ أَبِي، **فَقَالَتِ** الكُبْرَىٰ: إِنِّي لَكِ بِمَثَابَةِ الأُخْتِ وَالأُمِّ، وَمَكَانَتِي تُحَتِّمُ عَلَيَّ أَنْ أَرَىٰ لَكِ أَكْثَرَ مِمَّا أَرَىٰ لِنَفْسِي! فَانْهَمَرَتْ مِنْ عَيْنَيِ الصُّغْرَىٰ دُمُوعُ العَاطِفَةِ **وَأَجَابَتْ** أُخْتَهَا بِالعِنَاقِ، وَالمُوَافَقَةِ؛ مُسْتَشْعِرَةً حُبَّ أُخْتِهَا الصَّادِقَ، وَإِيثَارَهَا الَّذِي لَا يُوصَفُ؛ حِينَ جَعَلَتْ نَفْسَهَا بِمَثَابَةِ الأُمِّ حَقِيقَةً، وَآثَرَتْهَا بِمُوسَىٰ عَلَىٰ نَفْسِهَا! فَحَشْرَجَتْ بِصَوْتٍ خَافِتٍ: أَبْقَاكِ اللهُ وَأَسْعَدَكِ، وَجَعَلَنِي فِدَاءَكِ، **ثُمَّ تَمْتَمَتْ**: وَهَلْ يَلِيقُ بِنَا أَنْ نَخْطُبَهُ؟! **فَابْتَسَمَتِ** الأُخْتُ الكُبْرَىٰ، وَفَرَكَتْ بِأُذْنِ أُخْتِهَا، وَقَالَتْ: وَهَلْ تَعْدَمُ النِّسَاءُ الحِيلَةَ؟!

سَنَخْطُبُهُ بِطَرِيقَةٍ لَبِقَةٍ مُهَذَّبَةٍ، ثُمَّ إِنَّهُ نَوْعٌ مِنَ الشُّبَّانِ الَّذِي لَا ضَيْرَ، وَلَا حَرَجَ فِي طَلَبِ يَدِهِ وَخِطْبَتِهِ مُطْلَقًا، وَمَا هُوَ إِلَّا كَنْزٌ مِنَ الفَضَائِلِ، وَمِنْ حُسْنِ حَظِّ أَيِّ فَتَاةٍ تَلِيقُ بِهِ أَنْ تَسْتَحْوِذَ عَلَيْهِ؛ **حِينَئِذٍ** قَرَّرَتَا صِيغَةَ الخِطَابِ، وَدَخَلَتَا بِالْمَائِدَةِ، **وَعَلَى** الفَوْرِ **قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ** ؛ **أَدْرَكَ** شُعَيْبٌ فَوْرًا مَغْزَىٰ كَلَامِ

ابْنَتِهِ فَأَجَابَ مُخَاطِبًا مُوسَىٰ: **إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ** ؛ **وَأَدْرَكَ** فِي لَـمْحِ البَصَرِ أَنَّ مُوسَىٰ فَقِيرٌ، **ثُمَّ** إِنَّهُ يُرِيدُهُ أَنْ يَبْقَىٰ عِنْدَهُ كَمَا أَشَارَتْ ابْنَتُهُ فَأَكْمَلَ كَلَامَهُ: **عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ** ؛ **تَهَلَّلَ** فَرَحًا وَجْهُ مُوسَىٰ؛ مُدْرِكًا حَجْمَ الْحَفَاوَةِ، وَعُمْقَ التَّكْرِيمِ، وَدِفْءَ الضِّيَافَةِ؛ **فَأَجَابَ:** أَتَشَرَّفُ بِمُصَاهَرَتِكَ، وَأَشْكُرُكَ وَأَشْكُرُ ابْنَتَيْكَ عَلَىٰ كَرَمِ الضِّيَافَةِ، وَحُسْنِ الوِفَادَةِ، وَجَمِيلِ الثِّقَةِ، **وَلَمْ أَفْعَلْ** مَا يَسْتَحِقُّ هَذَا الْجَمِيلَ الكَبِيرَ؛ **لَوْلَا** أَنَّ البُيُوتَاتِ الكَرِيمَةَ تَجْعَلُ من حَبَّةِ الْـمَعْرُوفِ قُبَّةً، وَمِنْ حَصَاةِ الْجَمِيلِ جَبَلًا، وَسَأَكُونُ عِنْدَ حُسْنِ ظَنِّكَ، وَأَنَا مُوَافِقٌ بِامْتِنَانٍ وَغِبْطَةٍ: **ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ** ؛ ذَرَفَتِ الْعُيُونُ دُمُوعَ الفَرَحِ، وَتَرَقْرَقَتِ الأَمَاقِيُّ تَأَثُّرًا بِهَذِهِ الْـمُنَاسَبَةِ السَّعِيدَةِ، وَامْتَلَأَ البَيْتُ غِبْطَةً وَسَعَادَةً ودِفْأً، وَمَدَّ الشَّيْخُ يَدَهُ لِمُوسَىٰ **وَتَمَّ** عَقْدُ القِرَانِ بِابْنَةِ شُعَيْبٍ الصُّغْرَىٰ؛ بِمَشُورَةِ أُخْتِهَا الكُبْرَىٰ؛ **نَظَرَ** مُوسَىٰ إِلَىٰ عَرُوسِهِ الْخَجْلَىٰ الَّتِي كَادَتْ تَسْقُطُ حَيَاءً وَسُرُورًا وَحُبًّا، وَطَلَبَ

مِنْهَا الْجُلُوسَ بِجِوَارِهِ، وَقَالَ مُمَازِحًا: أَتَمَنَّى أَنْ تَكُونِي سِتَّ بَيْتٍ مُمْتَازَةً، وَسَأُجَرِّبُ خِبْرَتَكِ فِي صُنْعِ الطَّعَامِ الآنَ؛ **فَمَدَّتْ** أَنَامِلَهَا الْـمُرْتَجِفَةَ، وَكَشَفَتْ عَنْ وَجْهِ الْـمَائِدَةِ الشَّهِيَّةِ الحَارَّةِ اللَّذِيذَةِ، الَّتِي طُبِخَتْ عَلَى نَارِ الْـمَحَبَّةِ وَالْحَيَاءِ وَالْكَرَمِ وَالتَّكَرُّمِ وَالْـمَعْرُوفِ، **وَقَالَتْ** فِي أَدَبٍ، وَخَجَلٍ بَدَأَ يَتَلَاشَى رُوَيْدًا رُوَيْدًا: يَا زَوْجِي الْحَبِيبَ فَقَدْ كِدْتُ مَعَ أُخْتِي نَطْبَخُ لَكَ أَصَابِعَنَا؛ حُبًّا لَكَ، وَتَقْدِيرًا لِـمَعْرُوفِكَ، وَفِعْلِكَ النَّبِيلِ، وَإِذَا لَمْ يُعْجِبْكَ هَذَا الطَّعَامُ الَّذِي تَيَسَّرَ لَنَا فَأَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنِي عَلَيْكَ فَسَتَكُونُ زَوْجًا...! ضَحِكَ الْجَمِيعُ، وَاجْتَمَعَ الشَّمْلُ عَلَى الْمَائِدَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُبَارَكَةِ؛ وَأَصْبَحَ مُوسَى رَجُلَ العَائِلَةِ، **وَبَعْدَ** أَنْ أَخَذَ مُوسَى حَظَّهُ مِنَ الطَّعَامِ طَلَبَتْ مِنْهُ زَوْجُه أَنْ يَهْنَأَ بِقِسْطٍ مِنَ الرَّاحَةِ فِي غُرْفَتِهِ الَّتِي أُعِدَّتْ لَهُمَا عَلَى عَجَلٍ، وَاسْتَأْذَنَتْهُ فِي أَنْ تُسَاعِدَ أُخْتَهَا فِي غَسْلِ الأَوَانِي، وَاسْتِكْمَالِ شُؤُونِ العُرْسِ؛ فَأَوْعَزَ لَهَا بِأَنَّهَا أَمِيرَةُ البَيْتِ، وَكُلُّ رَغَبَاتِهَا مُجَابَةٌ.

وَدَّعَ مُوسَى شُعَيْبًا دَاعِيًا، شَاكِرًا، سَائِلًا اللهَ أَنْ يُدِيمَ الْمَعْرُوفَ، **وَاسْتَلْقَى** فِي غُرْفَتِهِ حَامِدًا رَبَّهُ عَلَى وَاسِعِ كَرَمِهِ، وَجَزِيلِ نِعَمِهِ، وَخَفِيِّ لُطْفِهِ، مُبْتَهِجًا بِسُرْعَةِ إِجَابَةِ دُعَائِهِ:

رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ مُرَدِّدًا: لَكَ الْحَمْدُ يَا رَبِّ؛ أَمَّنْتَنِي مِنْ خَوْفٍ، وَأَطْعَمْتَنِي مِنْ جُوعٍ، وَآنَسْتَنِي مِنْ وَحْشَةٍ، وَآوَيْتَنِي مِنْ غُرْبَةٍ! هَلْ أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؟ **لَكَ** الْحَمْدُ عَدَدَ خَلْقِكَ، وَرِضَاءَ نَفْسِكَ، وَزِنَةَ عَرْشِكَ، وَمِدَادَ كَلِمَاتِكَ، لَكَ الْحَمْدُ حَتَّى تَرْضَى، وَلَكَ الْحَمْدُ بَعْدَ الرِّضَا.

خَلاصَةٌ لِمَا يُمْكِنُ اسْتِنْبَاطُهُ مِنْ فَوَائِدَ وَأَحْكَامٍ مِنْ هَذِهِ القِصَّةِ:

1- وَحْشِيَّةُ فِرْعَونَ وَقَسْوَتُه وَغُرُورُه، وَتَفَوُّقُ الشَّيْطَانِ عَلَيْهِ- أَوْصَلَهُ إِلَى أَقْذَرِ مُسْتَنْقَعٍ، وَتَرَكَهُ مَرْمِيًّا فِي مَزْبَلَةِ التَّارِيخِ؛ مُوهِمًا إِيَّاهُ بِأَنَّهُ إِلَهٌ؛ فَلَمْ تَنْفَعْهُ دُنْيَاهُ، وَلَا عَظَمَتُهُ الْمُتَوَهَّمَةُ، وَلَا الأَنْهَارُ الَّتِي كَانَتْ تَجْرِي تَحْتَهُ، وَلَا جِبَالُ الأَهْرَامِ الَّتِي اتَّخَذَهَا لِيُخَلَّدَ فِيهَا بَعْدَ مَوْتِهِ، وَمِنَ العَجَبِ مَعْرِفَتُهُ بِالْمَوْتِ دُونَ أَنْ يَتَّعِظَ بِهِ.

2- لِلْمُجْتَمَعِ دَوْرٌ فِي خَلْقِ الفَرْعَنَةِ، وَصُنْعِ الاسْتِبْدَادِ؛ بِالتَّذَلُّلِ، وَالتَّصْفِيقِ، وَإِشْعَارِ الوَالِي بِأَنَّهُ مَالِكٌ وَلَيْسَ خَادِمًا لِلشَّعْبِ.

3- بِالرَّغْمِ مِنْ جَبَرُوتِ فِرْعَوْنَ إِلَّا أَنَّ نِظَامَ المَمْلَكَةِ قَائِمٌ عَلَى الِانْضِبَاطِ؛ فَلَمْ يَتَمَكَّنْ مُوسَى مِنَ البَقَاءِ بَعْدَ قَتْلِ

القِبْطِيِّ؛ لَأَنَّهَا حَادِثَةٌ تُخِلُّ بِأَمْنِ المُجْتَمَعِ الفِرْعَوْنِيِّ، وَتَخْدِشُ هَيْبَةَ الْفِرْعَوْنِ؛ **لِذَلِكَ** فَسَوْفَ يُنْزِلُ بِهِ الفِرْعُونُ القِصَاصَ وَلَوْ كَانَ وَلَدَهَ الْحَبِيبَ بِالتَّبَنِّي! **وَهَذِهِ** الْمِيزَةُ تُحْسَبُ لِفْرَعْونَ؛ إِذْ خَالَفَ الفَرَاعِنَةَ الَّذِينَ قَرَأْنَا عَنْهُمْ وَعَرَفْنَاهُمْ مِمَّنْ يَتَلَاعَبُ أَوْلَادُهُمْ، وَأَقَارِبُهُمْ بِأَرْوَاحِ النَّاسِ وَلَا يَرِفُّ لَهُمْ جَفْنٌ!

4- لَا يَخْلُو مُجْتَمَعٌ مِنْ وَمَضَاتِ خَيْرٍ؛ فَقَدْ جَاءَ مِنْ آلِ فِرْعَونَ مُؤْمِنُ آلِ فِرْعَونَ؛ **وَبِسَبَبِهِ** نَجَا مُوسَى مِنَ القَتْلِ كَمَا نَجَا مِنَ الذَّبْحِ قَبْلُ عَلَى يَدِ امْرَأَةِ فِرْعَونَ الطَّاهِرَةِ.

5- لَابُدَّ لِلظَّالِمِ مِنْ نَهَايَةٍ، وَقَدْ يُمْهِلُهُ اللهُ؛ فَإِذَا أَخَذَهُ فَلَنْ يُفْلِتَهُ، **وَقَدْ** كَانَتْ نَهَايَةُ فِرْعَونَ وَأَعْوَانِهِ الغَرَقَ، وَالشُّرْبَ قَبْلَ الْمَوْتِ مِنَ مَاءِ الْبَحْرِ المَالِحِ، وَأَنْ تَتَلَاعَبَ بِهِمْ أَمْوَاجُهُ، وَلِسَانُ حَالِهَا يَقُولُ: هَذِهِ هِيَ النِّهَايَةُ لِكُلِّ جَبَّارٍ أَثِيمٍ!

6- لَنْ يُضَيِّعَ اللهُ صَبْرَ الصَّابِرِينَ، وَعَذَابَ المُضْطَهَدِينَ؛ **وَقَدْ** أَوْرَثَ اللهُ الأَرْضَ هَؤُلَاءِ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ** [القصص: 83].

7- عِنْدَمَا يُصْرَعُ الظَّالِمُ تَسْتَرِيحُ مِنْهُ الدُّنْيَا، وَيُتْلَى عَلَى نَعْشِهِ: **كَمْ**

تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٖ وَمَقَامٖ كَرِيمٖ ﴿٢٦﴾ وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوۡرَثۡنَٰهَا قَوۡمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ [الدخان:25-29].

8- لَمْ تَنْفَعْهُ قَسْوَتُهُ الْمُفْرِطَةُ لِلْمُحَافَظَةِ عَلَىٰ مُلْكِهِ، وَإِقْدَامِهِ عَلَىٰ تَذْبِيحِ الأَطْفَالِ؛ فَالْبَقَاءُ لله، **قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ** [آل عمران:26]؛ وَمَا مِنَ الْمُقَدَّرِ حَذَرٌ، وَلَا مِنَ الْمَكْتُوبِ حِيلَةٌ، وَلَا مَفَرَّ لِأَحَدٍ مِنْ قَضَاءِ اللهِ وَقَدَرِهِ؛ مَا كُتِبَ فِي الْجَبِينِ لَا يَقْدِرُ الكَفُّ أَنْ يَمْحُوهُ.

9- سُخْرِيَّةُ القَدَرِ الإِلَهِيِّ مِنْ فِرْعَونَ جَعَلَتْهُ يُرَبِّي عَدُوَّهُ بِنَفْسِهِ، وَيُغَذِّيهِ بِيَدِهِ، فَسُبْحَانَ الغَالِبِ عَلَىٰ أَمْرِهِ! **فَمَنْ** غَالَبَ اللهَ يُغْلَبْ.

10- الْمَعْدِنُ النَّفِيسُ لَا تُفْسِدُهُ الْمُفْسِدَاتُ؛ **فَمُوسَىٰ** عليه السلام خَرَجَ مِنْ بَيْتِ فِرْعَونَ ثَائِرًا عَلَيْهِ، مُنْكِرًا ظُلْمَهُ وَفَسَادَهُ.

11- مَنْ طَلَبَ اللهَ أَجَابَهُ، وَمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ كَفَاهُ، كَمَا فَعَلَ اللهُ بِمُوسَىٰ حِينَ هَدَاهُ إِلَىٰ مَدْيَنَ، وَأَنْجَاهُ مِنْ فِرْعَونَ أَوَّلًا كَمَا

أَنْجَاهُ مِنْهُ ثَانِيًا، وَصَدَقَ اللهُ إِذْ يَقُولُ: **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ** [البقرة:186].

12- الْمُؤْمِنُ القَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَقَدْ ظَهَرَ ذَلِكَ فِي قُوَّةِ مُوسَى؛ إِذْ قَضَى عَلَى الْخَصْمِ بِوَكْزَةٍ، وَتَحَمَّلَ مَشَقَّةَ السَّفَرِ رَغْمَ أَنَّهُ كَانَ حَدِيثَ عَهْدٍ بِنِعْمَةٍ.

13- المَعْرِفَةُ بِأَحْوَالِ الزَّمَانِ هَدَتْ مُوسَى إِلَى مَكَانٍ آمِنٍ.

14- قُوَّةُ المُلَاحَظَةِ أَدَّتْ بِمُوسَى إِلَى التَّعَرُّفِ عَلَى ابْنَتَي شُعَيْبٍ.

15- الثِّقَةُ بِاللهِ وَبِالنَّفْسِ، وَحُبُّ الاسْتِطْلَاعِ مِنْ أَجْلِ الْخَيْرِ- دَفَعَ بِمُوسَى إِلَى سُؤَالِ الفَتَاتَيْنِ عَنْ حَالِهِمَا، وَتَقْدِيمِ العَوْنِ لَهُمَا.

16- مَبَادَرَتُهُ إِلَى سَقْيِ الغَنَمِ بِقُوَّةٍ وَثِقَةٍ وَاقْتِدَارٍ غَيْرَ عَابِئٍ بِغُرْبَةٍ، وَلَا آبِهٍ بِمَشَقَّةِ جُوعٍ، وَلَا سَفَرٍ؛ إِحْسَاسًا مِنْهُ عليه السلام بِقُوَّةِ الْخَيْرِ، وَجَمَالِ الْمَعْرُوفِ، **ثُمَّ** إِنَّ البِلَادَ بِلَادُ اللهِ، وَالسِّيَادَةُ فِيهَا للهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

17- شَهَامَتُهُ مَنَعَتْهُ مِنْ مُلَاحَقَةِ الفَتَاتَيْنِ بِنَظَرَاتِهِ، أَوْ أَحَادِيثِهِ حَيْثُ ذَهَبَ مُبَاشَرَةً إِلَى ظِلِّ الشَّجَرَةِ طَالِبًا الجَزَاءَ مِنَ اللهِ الكَرِيمِ الوَهَّابِ.

18- الصَّنَائِعُ وَدَائِعُ- كَمَا يَقُولُ المَثَلُ، وَفِعْلُ الجَمِيلِ لَا

يَضِيعُ.

ازْرَعْ جَمِيلاً وَلَوْ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَنْ يَضِيعَ جَمِيلٌ أَيْنَمَا وُضِعَا
إِنَّ الجَمِيلَ وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ فَلَيْسَ يَحْصُدُهُ إِلاَّ الَّذِي زَرَعَا

وقال آخر:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لاَ يَعْدَمْ جَوَازِيَهُ لاَ يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ

19- صَادَفَ مَعْرُوفُ مُوسَى خَيْرَ مَحَلٍّ، وَأَزْكَى مَعْدِنٍ، وَأَكْرَمَ أُسْرَةٍ يَتَضَاعَفُ لَدَيْهَا الْمَعْرُوفُ ﴿**كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ**﴾[البقرة:261].

20- مِنَ الوَاجِبِ رَدُّ الجَمِيلِ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ، وَهُوَ مَا فَعَلَهُ شُعَيْبٌ وَابْنَتَاهُ.

21- لَا حَرَجَ فِي أَنْ يَتَكَلَّمَ الرَّجُلُ الغَرِيبُ مَعَ المَرْأَةِ؛ مَا دَامَ ذَلِكَ فِي حُدُودِ الضَّوَابِطِ، وَالآدَابِ الشَّرْعِيَّةِ، والشَّرَفِ، وَالتَّصَوُّنِ، وَلَيْسَتِ الْمَرْأَةُ عِيًّا وَعَوْرَةً فَقَطْ، وَشَهْوَةً، وَمُتْعَةً فَحَسْبُ؛ فَالنِّسَاءُ شَقَائِقُ الرِّجَالِ، وَلَدَيهِنَّ أَعْمَالٌ دُونَ ذَلِكَ.

22- لَمْ تَجِدِ ابْنَةُ شُعَيبٍ الْخَجْلَى حَرَجًا مِنَ الذَّهَابِ لِمُوسَى بِمُفْرَدِهَا؛ لِمَعْرِفَتِهَا الْمُسْبَقَةِ بِنَزَاهَتِهِ، وَاطْمِئْنَانِهَا التَّامِّ إِلَى أَنَّ

الشَّابَّ الذَّاهِبَةَ إِلَيهِ أَحْرَصُ عَلَيْهَا مِنْ أَبِيهَا وَجَدِّهَا وَعَمِّهَا وَخَالِهَا؛ إِنَّهُ حَفِيدُ يُوسُفَ الَّذِي وَقَعَتْ فِي غَرَامِهِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ زُلَيْخَا **وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ۚ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ** أَيْ زَوْجُكِ **رَبِّيٓ** أي سيدي **أَحْسَنَ مَثْوَايَ** ؛ فَلَا أَخُونُهُ فِي أَهْلِهِ؛ **إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ** [يوسف:23]، وَهَذَا الْمَعْدِنُ مِنْ ذَاكَ الْمَعْدِنِ.

23- الْحَيَاءُ تَاجُ الْمَرْأَةِ الْجَمِيلُ؛ وَلِذَلِكَ لَمْ تُغْفِلِ ابْنَةُ شُعَيْبٍ وَسَائِلَ الْمُحَافَظَةِ عَلَى نَفْسِهَا مِمَّا يَقْتَضِيهِ الحَيَاءُ مِنَ الْمِشْيَةِ الْمُؤَدَّبَةِ، واللِّبَاسِ الْمُنَاسِبِ؛ فَلَمْ تَذْهَبْ بِحُلَّةٍ زَاهِيَةٍ، مُتَجَمِّلَةً بِالْخَلَاخِيلِ وَالأَسَاوِرِ وَالدَّمَالِجِ، وَلَمْ تَتَعَمَّدِ الإِغْوَاءَ وَالإِغْرَاءَ؛ لِتَلْفِتَ نَظَرَ مُوسَى؛ لأَنَّهَا مُؤَدَّبَةٌ، عَاقِلَةٌ، مُؤْمِنَةٌ بِأَنَّ هَذَا لَيْسَ الأُسْلُوبَ الصَّائِبَ الَّذِي تَحُوزُ بِهِ إِعْجَابَ الفَتَى، وَلَوْ فَعَلَتْ لَمَقَتَهَا، وَاسْتَسْمَجَهَا، وَامْتَنَعَ مِنَ الذَّهَابِ مَعَهَا، وَنَالَتْ عَكْسَ مَا تُرِيدُ.

24- التَّجَانُسُ، وَمُوَافَقَةُ الغِطَاءِ لِلإِنَاءِ هُوَ الَّذِي قَرَّبَ الفَتَاةَ مِنْ فَتَى أَحْلَامِهَا وَقَرَّبَهُ مِنْهَا فِي زَمَنٍ قَصِيرٍ بِدُونِ عَنَاءِ تَبَادُلِ كَلِمَاتِ الْحُبِّ، وَرَسَائِلِ الغَرَامِ.

25- مَوَاهِبُ الفِرَاسَةِ، وَصِدْقُ الحَدْسِ، وَذَكَاءُ الفِطْرَةِ أَرْزَاقٌ مِنَ اللهِ رَزَقَهَا ابْنَةَ شُعَيْبٍ، كَمَا رَزَقَهَا خَدِيجَةَ بِنْتَ خُوَيْلِدٍ وَغَيْرَهُمَا المُوَفَّقِينَ مِنْ عِبَادِهِ؛ إِنَّ فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ لَا تَخِيبُ؛ فَاتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ.

26- إِكْرَامُ الضَّيْفِ وَاجِبٌ دِينِيٌّ وَإِنْسَانِيٌّ وَأَخْلَاقِيٌّ؛ وَالضَّيْفُ يَأْتِي بِرِزْقِهِ، **وَقَدْ** كَانَ أَحْبَابُ اللهِ مِنْ رُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ يَتَسَابَقُونَ وَيُبَالِغُونَ فِي إِكْرَامِ الضَّيْفِ؛ **فَهَذَا** أَبُونَا إِبْرَاهِيمُ يُحْكَى **أَنَّهُ** كَانَ يَخْدُمُ ضَيْفَهُ بِنَفْسِهِ، **وَكَانَ** يُسَمَّى أَبَا الضِّيفَانِ، **وَكَانَ** لِقَصْرِهِ أَرْبَعَةُ أَبْوَابٍ؛ لِكَيْلَا يَفُوتَهُ أَحَدٌ، **وَقَدْ** وَصَفَ اللهُ ضَيْفَهُ مِنَ المَلَائِكَةِ بِالْمُكْرَمِينَ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ إِبْرَاهِيمَ؛ لِأَنَّهُ خَدَمَهُمْ وَأَخْدَمَهُمْ امْرَأَتَهُ؛ **وَقَدْ** حَكَى اللهُ عَنْ كَرَمِ نَفْسِهِ حِينَ بَادَرَ بِذَبْحِ عِجْلٍ دُونَ أَنْ يَشْعُرُوا؛ قَالَ تَعَالَى: **هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ** [الذاريات:24، 25]، وَعِنْدَمَا لَمْ يَأْكُلُوا اسْتَوْحَشَ مِنْهُمْ! فَاسْتَحَقَّ بِسَخَائِهِ أَنْ يَكُونَ أَبًا لِنَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ وَلِأُمَّتِهِ؛ **فَمِنْ** آدَابِ الضِّيَافَةِ أَنْ لَا تَقُولَ لِلضَّيْفِ: أَذْبَحُ لَكَ؟ أَوْ أَخْبِزُ لَكَ؟ بَلْ قَدِّمْ مَا عِنْدَكَ؛ فَالْمَثَلُ يَقُولُ: المُوَالِي بَخِيلٌ.

27- نُصْرَةُ المَظْلُومِ وَإِغَاثَةُ المَلْهُوفِ وَاجِبٌ بَلْ أَهَمُّ مِنَ الضِّيَافَةِ.

28- انْتِهَازُ الفُرْصَةِ مَحْمُودُ العَوَاقِبِ، وَضَيَاعُهَا غُصَّةٌ، وَأَجْمَلُ فُرْصَةٍ هِيَ مَا انْتَهَزَهَا شُعَيْبٌ وَابْتَنَاهُ بِاخْتِيَارِ مُوسَى زَوْجًا لِإِحْدَاهُمَا.

29- لَا عَيْبَ أَنْ تَخْطُبَ المَرْأَةُ زَوْجًا كُفْوًا، كَمَا يَخْطُبُ الرَّجُلُ امْرَأَةً كُفُؤَةً؛ فَالمُهِمُّ هُوَ وُجُودُ الدِّينِ وَالخُلُقِ فِي الطَّرَفَيْنِ.

30- لَا مَانِعَ مِنْ عَمَلِ المَرْأَةِ؛ مَا دَامَتْ مِنْ طِرَازِ ابْنَتَي شُعَيْبٍ: **لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ** ، وَلَا سِيَمَا عِنْدَ الحَاجَةِ إِلَى العَمَلِ: **وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** [القصص:23]؛ فَلَمْ تَزْدَحِمَا مَعَ الفِتْيَانِ.

31- إِذَا وُجِدَ لِلْمَرْأَةِ مَنْ يَكْفِيهَا مَؤُونَةَ عَنَاءِ الدُّخُولِ وَالخُرُوجِ وَمُزَاحَمَةَ الرِّجَالِ؛ فَهُوَ المَطْلُوبُ؛ فَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الحَضَارَةِ وَالتَّقَدُّمِ أَنْ نَجْعَلَ مِنْ عَمَلِ المَرْأَةِ فِي كُلِّ المَرَافِقِ عُنْوَانًا عَلَى أَنَّنَا أُمَّةٌ مُتَحَضِّرَةٌ تُعْطِي المَرْأَةَ حُقُوقَهَا؛ لِأَنَّ حُقُوقَ المَرْأَةِ مَمْنُوحَةٌ مِنَ اللهِ وَلَيْسَتْ هِبَةً مِنْ أَحَدٍ؛ **وَالبَيْتُ** وَالأَوْلَادُ وَالزَّوْجُ مِنْ أَهَمِّ الوَاجِبَاتِ المُقَدَّسَةِ الَّتِي لَا تَصْلُحُ لَهَا سِوَى رَبَّةِ البَيْتِ.

32- السُّلُوكُ الرَّاقِي مِنَ الرَّجُلِ مُمَثَّلًا بِمُوسَى، وَالمَرْأَةِ مُمَثَّلَةً فِي ابْنَتَي شُعَيْبٍ- جَعَلَ قَصَصَهُمْ حَدِيثَ القُرْآنِ، وَمِضْرَبَ الأَمْثَالِ، وَمَنَارَ الأَجْيَالِ.

33- السُّهُولَةُ وَاليُسْرُ فِي الزَّوَاجِ الَّذِي حَصَلَ هُوَ الَّذِي يَحْفَظُ لِلرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ حَقَّ الاسْتِقْرَارِ وَالأَمَانِ، **وَكَمْ** نَحْنُ بِحَاجَةٍ إِلَىٰ هَذَا فِي هَذَا الزَّمَانِ؛ لِتُعَفَّ فُرُوجٌ، وَيَلْتَئِمَ شَمْلٌ؛ **فَعُودُوا** بِاللهِ عَلَيْكُمْ إِلَىٰ يُسْرِ الإِسْلَامِ وَسَمَاحَتِهِ، وَتَذَكَّرُوا قَوْلَ اللهِ تَعَالَىٰ: **فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا**، وَقَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ: «يَسِّرُوا وَلَا تُعَسِّرُوا»[1]؛ فَمَا الفَائِدَةُ فِي المُفَاخَرَةِ بِالصَّالَاتِ الضَّخْمَةِ المُكْلِفَةِ، وَالفَسَاتِينِ البَاهِضَةِ، وَعَشَرَاتِ الثِّيَابِ وَالأَحْذِيَةِ، وَالعُطُورِ، وَالمُجَوْهَرَاتِ، وَالذَّهَبِ، وَالسَّاعَاتِ الثَّمِينَةِ، وَفِرَقِ المُغَنِّينَ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الخُزَعْبَلَاتِ الَّتِي ذَهَبَتْ بِعُقُولِ النَّاسِ، وَوَضَعَتِ العَرَاقِيلَ فِي النِّكَاحِ الحَلَالِ المُيَسَّرِ؛ مِمَّا سَبَّبَ وَيُسَبِّبُ فِي أَنْ يَعِيشَ الشَّبَابُ المُحَافِظُ عَلَىٰ دِينِهِ مِنْ رِجَالٍ وَنِسَاءٍ فِي صُعُوبَةٍ وَمُعَانَاةٍ،

---

(1) البخاري 38/1 رقم 69، ومسلم 1359/3 رقم 1732-1334.

وَالبَعْضُ الآخَرُ يَقَعُ فِي الرَّذِيلَةِ؛ **فَالوَاجِبُ** عَلَى النَّاسِ أَنْ يَتَخَلَّصُوا مِنْ هَذِهِ التَّقَالِيدِ وَالبِدَعِ الَّتِي أَثْقَلَتْ كَوَاهِلَهُمْ، وَلَا دَاعِيَ لِهَذِهِ الحَفَلَاتِ، وَالتَّكَالِيفِ، وَالحَنَنَاتِ وَالطَّنَنَاتِ؛ لَقَدْ بَلَغَ السُّخْفُ بِالنَّاسِ فِي بَعْضِ البُلْدَانِ أَنْ يَأْتُوا بِسَيَّارَةٍ مُحَمَّلَةٍ بِالشِّكْلِيتِ وَالمُلَيَّم وَالكَعْكِ وَالمَشْرُوبَاتِ الغَازِيَّةِ وَالمُشَكَّلَةِ الَّتِي ضَرُّهَا أَكْثَرُ مِنْ نَفْعِهَا، وَبِجَانِبِهَا هَدَايَا لِأَهْلِ القَرْيَةِ مِنْ هَذِهِ التَّوَافِهِ، **وَأَصْبَحَتِ** الشُّرُوطُ الَّتِي فَاقَتِ المِلْيُونَ وَاعْتَبَرُوهَا ثَمَنًا لِلنِّسَاءِ، فَيَتِمُّ التَّفَاوُضُ حَوْلَهَا كَالسِّلْعَةِ تَمَامًا، **وَفِي** بَعْضِ القُرَى وَهِيَ نَادِرَةٌ مَا زَالُوا مُحْتَفِظِينَ بِالإِسْلَامِ، وَالشَّهَامَةِ، وَالقَبِيلَةِ، وَالشَّرْطُ عِنْدَ بَعْضِهِمْ ثَمَانِيَةُ آلَافٍ رِيَالٍ، وَبَعْضِهِمْ عِشْرُونَ أَلْفًا، اللَّهُمَّ فَاشْهَدْ عَلَى المُغَالِينَ، وَارْحَمِ المُيَسِّرِينَ.

34- القِيمَةُ وَالقَدْرُ الَّذِي نَالَتْهُ المَرْأَةُ المُتَمَثِّلُ فِي مَهْرِهَا المُتَّفَقِ عَلَيْهِ بَيْنَ نَبِيِّينِ كَرِيمَيْنِ، وَهُوَ رَعْيُ الغَنَمِ ثَمَانَ سَنَوَاتٍ، وَتَمْتَدُّ بِالتَّرَاضِي إِلَى عَشْرِ سَنَوَاتٍ- **أَظْهَرَ** المُسْتَوَى الرَّفِيعَ الَّذِي تَحْتَلُّهُ المَرْأَةُ المُحْتَرَمَةُ.

35- لَيْسَ المُرَادُ مِنَ الرَّعْيِ هَذِهِ المُدَّةَ الطَّوِيلَةَ وَضْعَ الشُّرُوطِ الثَّقِيلَةِ، وَالمُبَالَغَةِ فِي المُهُورِ، كَمَا هُوَ الحَاصِلُ فِي هَذَا

الزَّمَانِ مِنْ مُبَالَغَاتٍ، وَتَكَلُّفَاتٍ مُرْهِقَةٍ لِلزَّوْجِ وَأُسْرَتِهِ، وَالعَرُوسِ وَأُسْرَتِهَا، إِلَى الحَدِّ الَّذِي حَرَمَ الكَثِيرِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسِاءِ مِنَ الزَّوَاجِ؛ وَسَيُؤَدِّي الحِرْمَانُ بِسَبَبِ الْمُغَالَاةِ، وَصُعُوبَةِ المَعِيشَةِ إِلَى خَلَلٍ اجْتِمَاعِيٍّ وَأَخْلَاقِيٍّ وَصِحِيٍّ؛ وَإِنَّمَا غَرَضُ شُعَيْبٍ عليه السلام اسْتِبْقَاءُ مُوسَى عليه السلام عِنْدَهُ بِمَثَابَةِ وَلَدِهِ؛ لِيَكُونَ رَجُلَ البَيْتِ، وَلَا سِيَمَا وَهْوَ غَرِيبٌ مُطَارَدٌ بِحَاجَةٍ إِلَى الهُدُوءِ وَالأَمَانِ وَالاسْتِقْرَارِ فِي بَيْتِ شُعَيْبٍ خَاصَّةً؛ وَالسَّبِيلُ الوَحِيدُ لِتَحْقِيقِ هَذَا الغَرَضِ هُوَ عَقْدُ الزَّوَاجِ بِشَرْطِهِ المَذْكُورِ، وَإِنْ فِي شَكْلٍ مُلْزِمٍ.

36- مِنَ اللَّائِقِ بِالمَرْأَةِ تَجَنُّبُ المَوَاقِفِ وَالمَوَاطِنِ الَّتِي لَا تَتَنَاسَبُ مَعَ رِقَّتِهَا، أَوْ تَخْدِشُ أُنُوثَتَهَا وَحَيَاءَهَا، **وَمِنْ** حَقِّ الْمُجْتَمَعِ أَنْ يَسْتَفِيدَ مِنْ مَوَاهِبِهَا وَقُدُرَاتِهَا، **وَمِنْ** حَقِّهَا أَنْ تُسْهِمَ فِي بِنَاءِ مُجْتَمَعِهَا وَأُسْرَتِهَا عَلَى شَرْطِ سُلُوكِ ابْنَتَي شُعَيْبٍ، **وَلَا تَنْسَى** الْمَرْأَةُ أَنَّ البَيْتَ وَشُؤُونَهُ مِنْ أَقْدَسِ الْمُقَدَّسَاتِ.

37- إِنَّ الطُّيُورَ عَلَى أَشْكَالِهَا تَقَعُ؛ فَحِينَ عَثَرَ الكُفُوءُ عَلَى شَكْلِهِ نَاسَبَهُ كَمَا يُنَاسِبُ الزَّهْرُ الطَّلَ؛ **وَقَدْ** أَرْشَدَ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الزَّوْجِ الْمُنَاسِبِ، **فَقَالَ**: «إِذَا أَتَاكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ

فَزَوِّجُوهُ، إِلَّا تَفْعَلُوا تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ»[1].

نَعَمْ: إِنَّ مَرْضِيَّ الدِّينِ مِنَ الطَّرَفَيْنِ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ مَرْضِيَّ الْمُعَامَلَةِ؛ **وَمَنْ** كَانَ كَذَلِكَ فَسَوْفَ يَكْشِفُ عَنْ عُيُوبِهِ إِنْ كَانَ بِهِ مَرَضٌ: سُلٌّ،أَوْ أَيُّ مَرَضٍ بَاطِنِيٍّ خَفِيٍّ، أَوْ كَانَ بِهِ أَوْ بِهَا لَمْعَةُ بَرَصٍ غَيْرُ ظَاهِرَةٍ، أَوْ آثَارُ حُرُوقٍ، أَوْ بَخَرٌ وَهْوَ نَتَنُ الفَمِ، أَوْ يَشْخِرُ هُوَ أَوْ هِيَ عِنْدَ النَّوْمِ، **وَيَجِبُ** التَّوْضِيحُ التَّامُّ: عَنِ النَّسَبِ، وَالْمِهْنَةِ، وَالحَالَةِ المَادِّيَّةِ، والمستوى العِلْمِي، وَهَلْ أَحَدُ الطَّرَفَيْنِ مُتَزَوِّجٌ أَمْ لَا؟ وَمَا شَابَهَ ذَلِكَ؛ وَالْمُؤْمِنُ الصَّادِقُ وَالْمُؤْمِنَةُ الصَّادِقَةُ هُوَ مَنْ يَقُولُ مِنَ البِدَايَةِ: أَنَا طَبِيعَتِي نَزِقَةٌ، أَوْ كَسُولٌ، أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ فَهَلْ تَصْبِرُ عَلَيَّ؟ أَوْ هَلْ تَصْبِرِينَ عَلَيَّ؟ فَمَا أَجْمَلَ أَنْ يَكُونَ الرَّجُلُ وَالمَرْأَةُ وَأُسَرَتَاهُمَا فِي غَايَةِ الصَّرَاحَةِ فِي كُلِّ مَا يَلْزَمُ إِيضَاحُهُ لِشَرِيكَيِ الْمُسْتَقْبَلِ؛ لَأَنَّ الدِّينَ العَظِيمَ يَمْنَعُ مِنَ الكَذِبِ، وَالتَّغْرِيرِ. **والخُلُقُ** الرَّصِينُ يَصُونُ صَاحِبَهُ عَنِ التَّظَاهُرِ بِمَا لَيْسَ لَهُ وُجُودٌ؛ **قَالَ**

---

(1) شرح التجريد 34/1، وأصول الأحكام 432/1، وشفاء الأوام 193/2، ومصنف عبدالرزاق 152/6 رقم 10325، وسنن الترمذي 395/3 رقم 1085، ونحوه ابن ماجة 632/1 رقم 1967.

ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ مِنَّا». **أَمَّا** المَرْأَةُ فهناك صِفَاتٌ خَاصَّةٌ زَائِدَةٌ، **وَقَدْ** حَدَّدَ النَّبِيُّ ﷺ لَهَا أَرْبَعَ صِفَاتٍ تُرَغِّبُ فِي نِكَاحِهَا؛ وَتَشْتَمِلُ عَلَى مَا ذَكَرْتُ سَابِقًا وَزِيَادَةٍ؛ **فَقَالَ**: «إِنَّمَا تُنْكَحُ المَرْأَةُ لِجَمَالِهَا، وَمَالِهَا، وَحَسَبِهَا، وَدِينِهَا، فَعَلَيْكَ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[1].

38- خَيْرُكُمْ لِلنَّاسِ خَيْرُكُمْ لِأَهْلِهِ؛ فَأَكْرَمُ الأَزْوَاجِ مَنْ أَسْعَدَ زَوْجَهُ؛ **فَلَا يُوَفِّرُ** أَسْبَابَ السَّعَادَةِ إِلاَّ مَنْ عَرَفَ حَقَّ شَرِيكِهِ؛ فَالْمَرْأَةُ يَجِبُ أَنْ تَعْرِفَ أَنَّ زَوْجَهَا يُرِيدُ مِنْهَا حِفْظَهُ فِي نَفْسِهَا، وَفِي البَيْتِ بِالِاقْتِصَادِ وَحُسْنِ التَّدْبِيرِ، **وَأَنْ** تَحْرِصَ كُلَّ الْحِرْصِ عَلَى أُنُوثَتِهَا، وَإِمْتَاعِ زَوْجِهَا بِجَمَالِهَا وَدَلَالِهَا، **وَأَنْ** تَمْلأَ قَلْبَهُ وَعَيْنَهُ بِمَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ مِنْ إِغْرَاءٍ وَتَوَدُّدٍ، **وَأَنْ** تَتَخَوَّفَ عَلَيْهِ بَنَاتِ الْهَوَى بِدُونِ غَيْرَةٍ مُزْعِجَةٍ، **وَالزَّوْجُ** يَجِبُ أَنْ يَعْرِفَ أَنَّ امْرَأَتَهُ مَخْلُوقٌ مِثْلُهُ، وَإِنْسَانٌ لَهُ مَشَاعِرُ وَقَلْبٌ، **وَأَنَّهَا** تَتَمَنَّى زَوْجًا يُوَفِّرُ لَهَا الأَمَانَ وَالْهُدُوءَ وَالاسْتِقْرَارَ، وَيَحْفَظُ لِسَانَهُ مِنَ الطَّلَاقِ، وَالثَّرْثَرَةِ بِهِ فِي أَتْفَهِ الأُمُورِ؛ فَالطَّلَاقُ خَطِيرٌ: جِدُّهُ

---

(1) مسلم 1086/2 رقم 1466، ومصنف عبدالرزاق 304/11 رقم 20605، وصحيح ابن حبان 344/9 رقم 4036.

جِدٌّ، وَهَزْلُهُ جِدٌّ، وَهْوَ يَقَعُ عَلَىٰ كُلِّ حَالٍ: فِي الغَضَبِ، وَفِي الرِّضَا، وَحَالِ الْحَيْضِ، وَالنِّفَاسِ، وَالصِّحَّةِ، وَالمَرَضِ، **وَأَشَرُّ** الأَزْوَاجِ وَأَخَسُّهُمْ مَنْ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ وَهِيَ حُبْلَىٰ، أَوْ بَعْدَ الوِلَادَةِ مُبَاشَرَةً، أَوْ يُطَلِّقُهَا وَهِيَ مُرْضِعٌ بِدُونِ سَبَبٍ وَلَا مُبَرِّرٍ يَسْتَدْعِي ذَلِكَ؛ **وَهَذَا** هُوَ الَّذِي يَسْتَدْعِي أَنْ تَتَحَرَّىٰ المَرْأَةُ وَأَوْلِيَاؤُهَا فِي الرَّجُلِ المَرْضِيِّ الدِّينِ وَالْخُلُقِ، فَأَيُّ دِينٍ وَأَيُّ خُلُقٍ لِمَنْ يُطَلِّقُ امْرَأَتَهُ فِي السُّوقِ وَهِيَ تَخْبِزُ لَهُ فِي البَيْتِ؟!وَأَشَرُّ النِّسَاءِ مَنْ تَطْلُبُ مِنْ زَوْجِهَا الطَّلَاقَ، وَتَتَحَدَّاهُ، وَتَسْتَثِيرُهُ.

39- يَجِبُ تَنْبِيهُ الأَزْوَاجِ إِلَىٰ مَسَأَلَةٍ خَطِيرَةٍ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِتَرْبِيَةِ الأَوْلَادِ؛ **فَلَا يَجُوزُ** لِأَحَدِ الزَّوْجَيْنِ أَوِ الأَبَوَينِ أَنْ يَعْتَرِضَ صَاحِبَهُ عِنْدَمَا يُؤَدِّبُ الأَوْلَادَ؛ لِأَنَّ ذَلِكَ يُقَلِّلُ مِنْ قَدْرِهِ فِي أَعْيُنِهِمْ، وَيُذْهِبُ هَيْبَتَهُ مِنْ صُدُورِهِمْ، وَيُسَبِّبُ اسْتِخْفَافًا بِالأَبَوَينِ، فَعَلَى الأَبِ أَنْ يَتْرُكَ أُمَّ أَوْلَادِهِ تُؤَدِّبُ أَوْلَادَهَا بِالمَعْرُوفِ، وَبِالطُّرُقِ الشَّرْعِيَّةِ، وَهِيَ كَذَلِكَ، وَإِذَا كَانَ لِأَحَدِهِمَا أَيُّ اعْتِرَاضٍ فَيَهْمِسُ لَهُ سِرًّا أَوْ فِي غَيْرِ حُضُورِ الأَوْلَادِ، **اللَّهُمَّ** إِلَّا إِذَا كَانَ أَحَدُ الأَبَوَيْنِ فِي غَضَبٍ شَدِيدٍ،

وَسَيْضِرِبُ الأَوْلَادَ ضَرْبًا مُبَرِّحًا، أَوْ يَخْدِشُ لَحْمًا، أَوْ يَكْسِرُ عَظْمًا؛ فَهَذَا مُحَرَّمٌ، وَيَجِبُ التَّصَدِّي لَهُ، وَالتَّدَخُّلُ لِإِيقَافِهِ؛ لِأَنَّهُ مِنْ بَابِ الأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ المُنْكَرِ.

40- عِنْدَمَا يَحْتَاجُ الرَّجُلُ إِلَى الزَّوَاجِ بِثَانِيَةٍ أَوْ ثَالِثَةٍ أَوْ رَابِعَةٍ فَيَجِبُ مُرَاعَاةُ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ فِي ذَلِكَ؛ **فَالرَّجُلُ** يَجِبُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ السَّكَنِ المُنَاسِبِ، وَالكِفَايَةِ، وَالْعَدْلِ، وَالمُسَاوَاةِ بَيْنَ الزَّوْجَاتِ وَالأَوْلَادِ، **وَيَجِبُ** عَلَى الزَّوْجَةِ أَنْ تَحْتَسِبَ لِوَجْهِ اللهِ، وَأَنْ لَا تُشْعِلَ الدُّنْيَا نَارًا؛ فَهِيَ تَعْرِفُ مِنَ البِدَايَةِ أَنَّ هَذَا حَقٌّ مَشْرُوعٌ، وَإِنَّما مَنَعَ الشَّرْعُ التَّعَسُّفَ، وَالمِزَاجِيَّةَ، وَاتِّبَاعَ الهَوَى؛ **فَلَا يَجُوزُ** أَنْ تُتَّخَذَ المَرْأَةُ مُجَرَّدَ سِلْعَةٍ لِلَّهْوِ وَاللَّعِبِ فَيَتَزَوَّجُ وَيُطَلِّقُ لِمُجَرَّدِ المُتْعَةِ؛ **وَهَذَا** فِي رَأْيِي أَقْرَبُ الحُلُولِ لِمُواجَهَةِ المَشَاكِلِ الأُسَرِيَّةِ وَمَا يَحْصُلُ مِنْ خِيَانَاتٍ زَوْجِيَّةٍ.

وَالخُلَاصَةُ: فَمِنَ القُرْآنِ الكَرِيمِ، **وَمِنْ** سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ الصَّحِيحَةِ، وَمُعَامَلَتِهِ الكَرِيمَةِ **تَسْتَطِيعُ** الْمَرْأَةُ انْتِزَاعَ حَقِّهَا، **وَلَيْسَ** مِنْ صُرَاخِ الغَرْبِ وَأَذْنَابِهِمْ بِحُقُوقِ الْمَرْأَةِ، الَّذِي هُوَ حَقٌّ يُرَادُ بِهِ بَاطِلٌ فِي أَحْيَانٍ كَثِيرَةٍ، **وَالأَجْدَرُ** بِالرِّجَالِ وَفِي مُقَدِّمَتِهِمْ عُلَمَاءِ الأُمَّةِ أَنْ يَعْتَرِفُوا بِأَنَّ الجُمُودَ عَلَى الثَّقَافَةِ

الْـمُشَوَّهَةِ حَوْلَ الْـمَرْأَةِ يَتَنَافَى مَعَ رُوحِ القُرْآنِ وَنَصِّهِ؛ فَلَيْسَ مِنَ الإِسْلَامِ فِي شَيْءٍ القَوْلُ بِأَنَّ الْـمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلْعٍ أَعْوَجَ، وَأَنَّهَا عِيٌّ وَعَوْرَةٌ، وَأَنَّهَا نَاقِصَةُ عَقْلٍ وَدِينٍ، وَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ قَوْمٌ وَلَّوْا أَمْرَهُمْ امْرَأَةً، وَأَنَّ دِيَتَهَا مِثْلُ نِصْفِ دِيَةِ الرَّجُلِ، والرواية التي تقول: إِنْ لَمْ تَسْتَجِبْ لِزَوْجِهَا وَلَوْ دَعَاهَا وَهِيَ عَلَى التَّنُّورِ تَخْبِزُ لَهُ لَعَنَتْهَا المَلَائِكَةُ وَكُلُّ شَيْءٍ حَتَّى الْحِيتَانُ فِي البَحْرِ؛ إِنَّ القُرْآنَ الكَرِيمَ يَقُولُ بِغَيْرِ هَذَا ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾[البقرة:228]، ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[التوبة:71]، فَكَيْفَ تَأْمُرُ وَتَنْهَى وَهِيَ عِيٌّ وَعَوْرَةٌ عِنْدَ البُلَدَاءِ الْمُغَفَّلِينَ؟!

إِنْ لَمْ نَتَعَامَلْ بِالقُرْآنِ وَبِسِيرَةِ الرَّسُولِ ﷺ رِجَالًا وَنِسَاءً فَسَيَأْتِي يَوْمٌ يَضْغَطُ فِيهِ الأَمْرِيكَانُ وَالأُورُبِّيُّونَ عَلَى زُعَمَاءِ العَرَبِ وَالْـمُسْلِمِينَ؛ لِيَجْمَعُوا العُلَمَاءَ وَيُقِرُّوا مَا يُمْلِيهِ قَانُونُ الغَرْبِ رَغْمًا عَنْهُمْ، وَسَيَتَسَابَقُونَ إِلَى القَوْلِ بِأَنَّ مُسَاوَاةَ الْـمَرْأَةِ الْـمُسْلِمَةِ بِالْـمَرْأَةِ الغَرْبِيَّةِ فِي التَّحَرُّرِ مِنْ كُلِّ قَيْدٍ مِنْ

صَمِيمِ دِينِنَا الْحَنِيفِ، وَأَنَّنَا سَبَقْنَا الغَرْبَ وَالشَّرْقَ فِي الانْفِتَاحِ؛ فَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُنَا يَطُفْنَ بِالْبَيْتِ العَتِيقِ عَرَايَا.

إِنَّنَا نُنْكِرُ حُقُوقًا، وَنَظْلِمُ مَخْلُوقًا، وَلَا نَدْرِي أَنَّنَا بِذَلِكَ نُهِينُ نُفُوسَنَا، ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ﴾[الحج:18].

عَلَى الْمُسْلِمِينَ أَنْ يُنْصِفُوا المَرْأَةَ فِي مِيرَاثِهَا، وَأَنْ لَا يُزَوِّجُوهَا إِلَّا بِمُوَافَقَتِهَا، وَيَحْرُمُ أَنْ يُقَايَضَ بِهَا فِي زَوَاجِ أَخِيهَا أَوْ أَبِيهَا أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ مِنَ الغَبَاءِ وَالتَّخَلُّفِ الَّذِي أَعَادَنَا إِلَى الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى، وَاعْتَبَرْنَاهَا سِلْعَةً.

وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَسَلَّمَ

وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.